القسم الأول
١ - تأملات قبل الرحلة

قبل الرحلة :

كنت قد يأست طويلاً من طلبات الحج التى تقدمت بها إلى جهات كثيرة رسمية وغير رسمية ، إذ كانت الإجابة دائمًا : لم يصبه الدور . . وكانت لهفة زوجتى - للحق - أكثر منى ، وبشكل أدق ، كانت لهفتها تلقى فى تيار الذهاب إلى الأراضى المقدسة بباعث روحى محض ، فى حين كنت أضيف إلى الباعث الدينى باعثًا آخر ، ينطلق من تكوينى الذاتى الذى يقوم على الوعى الذى أتعامل به فى كل شىء .

لم تكن رغبتى تخلو من الباعث الروحى إذًا ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ (آل عمران - ٩٧) ، غير أنَّ رغبة أخرى كانت تسيطر علىّ ، وهى تنطلق من أن هذه الرحلة وإن تكن للديار المقدسة ، فسوف أحاول فيها أن أُعبِّر عن ذاتى ، فالرحلة تُعبِّر - كما أعتقد - عن الوعى الثقافى الذاتى أكثر مما تعبر عن الواقع « الطبوغرافى » .

الكتابة هنا تعبِّر عن الداخل ، أكثر مما تعبر عن الخارج .

تعبر عن المشاعر والكوامن داخل النفس البشرية (كما هى) ، أكثر مما تعبر عن المرئيات والأحداث والمشاهد المكانية وحتى الجغرافية والچيولوچية بأية حال . .

إن الرحلة تبدو أقرب إلى السيرة الذاتية لولا أنها تبغى الانسياح فى بلاد الله لفهم هذه العوالم من خلقه ، وهو فهم ينطلق - فى الأساس الأول - من العالم الجوانى للكاتب وتكوينه ؛ « فالرحلة ليست غير أنباء عن ذهنية الرّحالة وتصوير لمكونات « الوعى الثقافى » عنده أكثر مما هى حديث عن البلد ، موضع المشاهدة أو أخبار عن القوم أهل البلد أو الإقليم موضوع الزيارة . ينطبق على الرحلة ، إلى حد بعيدًا على حد تعبير البعض . وثمة تعبير فرنسى قديم يذكر هنا للتدليل على هذه الحالة ، فحين

يشير البعض إلى الحانات الإسبانية ، يرى أن المرء لا يرى فيها إلاّ ما يكون هو نفسه قد حمله إليها .

ونعتذر سلفًا عن هذا التعبير فى هذا المقام ، لولا أنه يعبر عن الفكر المجازى ، وليس الرحلة بمعناها المعاصر . عن هذه الحالة بالفعل أحاول أن أُعبر هنا عن ما أحست به من الانتقاء من المشاهدة ، أو مما انفعلت به من الرحلة ؛ وهى رحلة كانت تقوم - بالتبعية - على الواقع الذى وجدت نفسى فيه ، وهو الواقع العربى الإسلامى أو الإسلامى العربى ، الذى عثرت عليه فى هذا الخضم الهائل أثناء رحلة الحج .

وهذا بالضبط ما وجدته فى كثير من البلاد العربية والغربية التى ذهبت إليها . .

الذات والبحث عن المعرفة كانا ما يسيطران علىّ . .

معنى هذا أن الرحلة لا تعبر عن الذات وحسب ، وإنما هى - كذلك - للبحث عن استكمال المعرفة وتنقيحها عبر الرؤية المباشرة ، وفى رحلة إلى الحج ، فإن هذه المعرفة تستمد علاقاتها من طبيعة هذه الرحلة بوجه خاص ، بل إن الرحلة - وهذه رحلة غير عادية - من المؤكد أنها تصقل معرفة الإنسان ، خاصة ، مع توالى السنين وتراكم الأحداث . .

إن العقل الواعى هنا يصبح أكثر وعيًا برحلة كهذه ، وهو ما تذكرت معه اعترافات طه حسين حين قدر له أن يزور الأماكن المقدسة فى رحلة حج فى منتصف الخمسينيات ، فحين وجهت إليه الأسئلة لتكشف عن شعوره بعد ما ناله من سوء الفهم بعد كتابه (عن الشعر الجاهلى) ، قال بالحرف الواحد :

- لقد سبق أن عشتُ بفكرى وقلبى فى هذه الأماكن المقدسة زهاءَ عشرين عامًا ، منذ بدأت أكتب « على هامش السيرة » حتى الآن .

ولما زرت مكة والمدينة أحست أنى أعيش بفكرى وقلبى وجسدى جميعًا ، عشت بعقلى الباطن ، وعقلى الواعى . . . استعدت كل ذكرياتى القديمة ، ومنها ما هو من صميم التاريخ ، ومنها ما هو من صميم العقيدة . وحين سأله محاوره عما ذهب إليه فى هذا الشعور ، أجاب فى ابتسامة لها معنى :

(- . . لم أصل إلى درجة انجذاب . . كنت دائمًا فى كامل وعيى . . . (و) . .

لقد زرت هذه المناطق مرة واحدة ، وكنت فى هذه المرة الواحدة مع الناس ومع نفسى فى وقت معًا) عاد السائل يلح عليه ، كيف عاش الحالتين ، بينما كان المطوفون يحاصرونه ؟ فأجاب :

(- كنت شخصيتين : شخصية واعية بلا كلام ، وشخصية متكلمة بلا وعى) .

وهذا هو المعنى الذى لم يفارقنى طيلة هذه الرحلة التى سبقتها رحلات (عمرة) كثيرة ، ورحلات (مشاركة) فى مؤتمرات كثيرة فى أنحاء المملكة ، كنت أسعى فى كل مرة فيها أن أكون زائرًا لهذه الأماكن المقدسة وإن لم يكن فى وقت الحج ، وإنْ لم أفقد أبدًا فى كل الحالات هذا الوعى الكامل مع نفسى ومع الناس .

وهو وعى مرتبط بالمعرفة فى أحد نواحيه الملحوظة .

وهذا المعنى واحد من معان أو أنواع كثيرة معروفة فى التراث العربى أشار إليها كثيرون من دارسى الرحلة فى تاريخنا .

والرحلات - كما أشرنا - أنواع كثيرة .

وقد يكون من المهم هنا أن نشير إلى بعضها ، قبل أن نتمهل عند الرحلة التى أثرناها هنا ؛ فقد عرفنا من الرحلات فى التاريخ العربى أنواعًا كثيرة ، ومن الرحلات الغربية (بالنسبة إلينا رحلة واحدة) عرفنا دافع الرحلة عندنا فى التاريخ أو التراث الإسلامى رحلة التزود بالعلم - ولدينا أمثلة كثيرة لهذا . وعرفنا رحلة التجارة التى كانت تجوب الأقطار هنا وهناك لتعود إلينا بحكايات وروايات كثيرة ، عرفناها عند ابن بطوطة وقبلها بقرون عرفناها فى أمثلة كثيرة فى قصص (ألف ليلة وليلة) . .

ويقول لنا التاريخ إن هناك الرحلة الإدارية التى تعمل « لحساب العلاقات بين الدول الإسلامية ومجتمع الدول الخارجى » .

وهناك - على الجانب الآخر - هذه الرحلة التى أولتها الدول الغربية عناية كبيرة ، ومع إننا كنا موضوع الرحلة ، فإننا عرفناها على اعتبار أن صاحب الرحلة سجّلها فى كتاب ، وكان الغرض منها - بناءً على تكليف بلد صاحب الرحلة - تعرف ما يدور هنا

فى بلادنا ، ومن هؤلاء خرج الرحّالة الإنجليز من الهند - حين كانت مستعمرة - ومن وزارة الخارجية البريطانية ثم من ألمانيا وفرنسا . . إلى آخر هذه الرحلات . غير أن رحلة (الحج) كانت إحدى أهم الرحلات التى تقوم بوازع دينى ، فالحج - كما نعرف - فريضة واجبة ، والطريق - كما عرفناه أيضًا كان يستغرق من الشهور إلى السنين إلى السنوات قديمًا لبعد المسافات .

والمعروف أن الرحلة اعتبارًا من القرن السادس الميلادى (العاشر الميلادى) اتخذت آمادًا ومساحات بعيدة ، ومن ثم تعرّفنا الرحلات التى لم تعد غريبة بيننا الآن ، ثم هناك الرحلة إلى الحج ، وهو ما نصل إليه هنا .

غير أن رحلة الحج بالنسبة لى كانت تجمع بين الوازع الروحى والمعرفة ، وقد يرى البعض أن العنصرين - الدينى والمعرفى - لا يلتقيان ، غير أن الرحلات القديمة فى عالمنا فى الشرق كانت تشير إلى نجاح هذه الرحلة ، وربما تتفوق فى حصادها الأخير على الرحلة الأولى ، فالمعروف أن الرحلة قديمًا فى عالمنا الإسلامى التى تبدأ بهدف الحج تكون - فى الوقت نفسه - لتعرف العلماء والاقتراب من الزهاد ، وتعرف البلاد ، وربما كانت فى وجه آخر من وجوهها « من أجل الوقوف على قطب صوفى أو سعى إلى (لبس الخرفة) منه أو الظفر منه بالإذن فى السياحة الصوفية » . .

كل هذا قد لا يرضى البعض الآن .

ولطالما سمعت - وأنا أحفظه عن ظهر قلب قبل أن أسمعه - أن الحاج لابد وأن يذهب إلى الديار المقدسة ، ويعود ، فإذا هو (لم يفسق) - على حدّ قول الرسول الكريم - ﷺ - ويعود « كيوم ولدته أمه » ، أو ممن أوغل فى السلفية (أسارع بالقول أن هناك سلفية واعية عاقلة) فإذا هو لا يرى من الرحلة غير ما سمعه من العامة وما هو مألوف ؛ ومع هذا كله فإننى أؤكد أننى لم أرتكب معصية منذ عدت - ولا قبلها كما أزعم - بل على العكس أُقبل على كل الآيات القرآنية التى تدعو إلى التدبر والنظر ، والسير فى الأرض ﴿ **فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (العنكبوت - ٢٠) ، ثم حثّ على رؤية آيات الله فى الآفاق وفى

أنفسهم، وتشير إلى العقل وإلى القلب (= مساويًا للعقل ومعبرًا عنه) ، وغيرها من الآيات التى تسعى إلى المعرفة فى وجود الوعى الدينى المعاصر الذى يسهم فى عيشنا فى حقبة خطيرة من تاريخنا العربى ، وتاريخنا الغربى أيضًا ، فنحن - شئنا أم أبينا - نعيش فى التاريخ الغربى الآن .

إنه طلب تعرف الواقع والاقتراب منه والانطلاق منه إلى التغيير .

وهو فى جميع الأحوال فى طلب المعرفة ، معرفة العوائد ، ومعرفة الأحداث ، ومعرفة (الآخر) أحيانًا وهو ما كنا نسعى إليه فى هذه الرحلة ، خاصةً ، وإن كاتب هذه السطور ، لم يستطع منذ نعومة أظافره فصل نفسه قط عما يحدث فى - أو عن - عالمنا الإسلامى فضلاً عن العربى ، لم يستطع أن ينظر من بعيد لهذا العالم الذى أصبح فى (موقع) و (موضع) لم يقترب فيه من الغرب ؛ بل على العكس ، كان على الغرب أن يمارس هيمنته بشراسة وعنف ودموية منذ القرن الخامس عشر الميلادى - على وجه التقريب - سواء منذ عرفنا الاستعمار مرتبطًا بالتجارة أو منفصلاً عنها ، وصولاً إلى (العولمة) مرتبطًا بتجارة الشركات المتعددة الجنسيات وأخواتها مما عرفناه فى بداية القرن الواحد والعشرين . .

فلنعد إلى الرحلة مرة أخرى .

* * *

كانت هذه مناسبة طيبة - إذًا - لأ ف ما يدور فى الطريق إلى جدّة ، ثم فى الطريق إلى الحجاز بمدنه وقراه - وقبل هذ بعده - بالمقبلين إليه من حجاج العالم كله ، الذين زاد عددهم هذا العام بشكل يمكن أن نذكر بتواضع أنه جاوز الثلاثة ملايين حاج يمثلون - كما سنرى - أكثر من أربعة مليارات ونصف المليار مسلم فى العالم كله .

أحاول أن أعرف ما لا يريد أن يعرفه أغلب المتجهين فى الطريق إلى مكة . .

ويزيد من هذه الرغبة أن تفاصيل الرحلة - على هذا النحو - غابت بشكل عام منذ القرن الحادى عشر الهجرى حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجرى ، قبل هذا التاريخ كان أدب الرحلة لدينا زاهرًا ، ولا يزيد أن نكتب الآن دراسة عن هذا الأدب

وألوانه وأنواعه ، فقد سطر عنه كثير ، لكن المهم أن أدب الرحلة قبل هذا التاريخ كان لدينا مزدهرًا ، ثم أخذ فى الخفوت رويدًا رويدًا حتى عاد فى القرن الأخير إلى التطور والازدهار من جديد .

بيد أن مراجعة الرحلات إلى بيت الله الحرام فى الحقبة الأخيرة لدينا تروعنا أننا لا نكاد نقع على رحلة من هذه الرحلات فى العصر الحديث تقوم بالمعرفة ، وتقدم الدروس المستفادة من أدب الرحلة فى الإسلام ، وكما تحدده العقيدة .

إن مراجعة أغلب هذه الرحلات اليوم لم تزد على أن ترسم شريطًا موشىً بالحب الإلهى للبيت وآل البيت ، وولع بالحب الإلهى بشكل تجريدى لا يرتبط بالدنيا التى نعيش فيها فى قليل أو كثير ، ويلاحظ هنا أن أغلب الرحلات فى العالم الإسلامى إلى الحج لم تزد عن هذا ، غير أن هناك عددًا من الرحلات التى ترتبط بالحج أو ترتبط (بالرحلات) بشكل عام خرجت عن هذه القاعدة ، أو أضافت إلى هدف الحج - الروحى - وعيًا بالهدف - الآخر - الذى لا يخرج عن العقيدة بأيّة حال ، وإنما يضيفُ الوعى الذى يجعلنا واعين لدنيانا وآخرتنا فى الوقت نفسه .

وحديث الرحلات فى التراث الإسلامى يقترب بنا أكثر من (فوائد) السفر .

* * *

إن الرحلات بشكل عام لاقت اهتمامًا كبيراً لفائدتها فى اكتساب وعى جديد ، كما أكدت (فوائد السفر) وعيًا باطنيًّاً يشير إلى التنبه إلى الحياة والأحياء والتطورات البشرية والاقتراب الصحيح ومعرفة العلماء وما إلى ذلك .

إنها الرحلة التى لا ترتبط إلاّ بما نصَّ عليه النص القرآنى ، ودعت إليه الحياة التى نحياها فى هذا العالم .

وقد فطن إلى ذلك ابن خلدون ، حين قال في فترة مبكرة إن (. . الرحلة لابد منها فى طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال) ، وهو ما أشار إليه بشكل أو بآخر الإمام الغزالى فى جزئه الثانى ، حين قال فى باب (فوائد السفر) إنّ السفر سفران (سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحارى

والفلوات ، وسفر يسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات . وأشرف السفرين السفر الباطن . فإن الواقف على الحالة التى نشأ عليها عقيب الولادة ، الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء والأجداد لازم درجة القصور وقانع بمرتبة النقص ومستبدل بمتسع فضاء - جنة عرضها السموات والأرض - ظلمة السجن وضيق الحبس . .) .

وبعد ذلك بفترة زمنية ، قال محمد الخضر حسين ما معناه : أن الإسلام لم يترك وسيلة من وسائل الرقى إلاّ نبه عليها ، وندب إلى العمل بها ، وهذا شأنه فى الرِّحلة ، فقد دعا إليها راميًا إلى أغراض سامية كثيرة ، منها « طلب العلم والتفقه فى الدين ، والمعرفة بأحوال الأمم الحاضرة . . وما إلى ذلك » .

وقد توالت الرحلات طيلة القرنين الماضيين بشكل لم يكن ليمكن أن تكون بمعزل عن العالم بأيّة حال حتى نوقشت رسائل وطبعت دراسات عديدة حول الرحلة فقط (ربما كان أبرزها كتاب لنازك سابايارد) عن الفكر العربى وتطوره .

وهو ما يعود بنا ثانية إلى هذه الرحلة .

* * *

وعلى أيّة حال ، فقد حرصت أن أكون واعيًا أثناء السير إلى مكة بأحداث الطريق ، وهى أحداث لم تبدو ذا أهمية كبيرة فى الرحلة فى حد ذاتها ، غير أنها كانت تشير إلى ملابسات مهمة تصل بى - مع الوعى الذى جهدت أن يكون حاضرًا - إلى الغاية التى أردتها فى هذه الحقبة الخطيرة من تاريخنا .

لم يكن الهدف - كما أشرت - هو رصد الطريق بين مصر والحجاز ، وهو ما فعلته أكثر الكتب التى كتبت عن هذه الرحلة(*) ، كما لم يكن من هدفى التوقف عند

(*) هناك كتب كثيرة أغرقت فى هذا ، لعل من أهمها فى هذا الصدد (رحلة الحجاز) ، وقد كتب تحت عنوانه على الغلاف الخارجى هذه العبارة (وتشتمل على وصف عام للحجاز وعلى المنازل والمناسك والأدعية التى تقال بها ومسافات الطرق ونبذ فى المسائل الصحية وشذرات تاريخية) من تأليف الدكتور عبد الغنى شهبندر (نشر فى بيروت ١٩٣٧) ، وفعل مثل ذلك صاحب (الرحلة الحجازية) بالتركية وهو أوليا جلبى . . وغيرهما كثير .

دراسات ضافية حول زمن الرسول وبيت النبوة وفى منزل الوحى والفتنة الكبرى ، أو الدوران حول التاريخ الإسلامى فى رصد العبقرية أو الاستدعاء للميثولوچيا الكبرى . . وما إلى ذلك كما فعل أساتذة كبار كعباس العقاد ومحمد حسين هيكل وطه حسين . . وغيرهم ، فلم يكن الكتابة بهذا الشكل من أهدافى قط . وإنما كان الهدف الأول أن أرصد ما طرأ على الجزيرة العربية من « واقع حى » (خاصة أنه توفرت لى أكثر من رحلة سابقة للرياض) وأرصد للوعى الثقافى داخلى إزاء ما أراه ، وأتفاعل معه إلى درجة أن أكون (شاهد عيان) لما أعيش فيه ، وفى جميع الحالات كنت أستشعر مسئولية جسيمة ، وأنا أؤدى الفريضة كمسلم يعيش على هذه الأرض العربية والإسلامية .

صحيح أن هناك بعض الكتابات التى نقلت ما رأت بوعى وقصد سليم ، غير أنها كانت - فى الحصاد الأخير - قليلة ، لا تشفى قلب القارئ ، ولا تصل به إلى غاية واضحة أو قريبة من الوضوع ، من أهم هذه الكتابات أختار كتابين : أحدهما قريب ، وهو مراد هوفمان (الطريق إلى مكة) ، غير أن النص كان فى الأصل منشوراً بالألمانية فى التسعينيات لعالم ألمانى أسلم ، ومن ثم ، غلبت عليه رؤية شرح الذات أو الدفاع عن موقفه الجديد ، وإنْ لم يسلم كتابه من لمحات واعية (والمثال البليغ فى هذا كتاب د . على شريعتى : الحج الفريضة الخامسة) ، أما الكتاب الآخر فهو بعيد ، يصل إلى ما قبل قرن من الزمان حين كتب عبد الرحمن الكواكبى كتابه (أم القرى) ، وقد كتب على غلافه الخارجى ما ينم عن موضوعه (وهو ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد فى مكة المكرمة سنة ١٣١٦هـ ، بما يشير إلى أن صاحبها لم يقم برحلة للديار المقدسة ، وإنما كان هدفه تصوير مؤتمر ، تمنى أن يُعقد فى (أم القرى) لرصد أسباب (الفتور) التى عمت العالم الإسلامى . .

والكتاب الأخير - وإن لم يلتزم بخصوصية أدب الرحلات أو كتب الرحلات بشكل خاص ، فإنه يشفع له الجدية والوعى الفكرى الفائق ، الذى حاول أن يقوم به للبحث عن (جمعية) أو (مؤتمر) للنظر فى حال العالم الإسلامى فى نهاية القرن

التاسع عشر ، وهذا الكتاب وغيره أودى بصاحبه إلى مصير دامٍ لم يستطع أن يفلت منه كلما سعى إلى البحث عن رؤية أو طريق للوصول بالأمة إلى طريق السلامة .

وعدا ذلك ، فإن العصور على ما يؤدى الهدف من الرحلة لم يكن ميسوراً بالقدر الكافى خاصة فى بداية الألفية الثالثة ، ومن هنا ، كان اهتمامى الفائق بهذين الكتابين حتى أننى توقفت طويلاً أمام الكتاب الأخير ، الذى صحبنى بفكره ووعيه طيلة رحلتى إلى عرفات وحتى بعد العودة منها .

والآن فلنقترب أكثر من الرحلة . .

* * *

٢ - ثم إن هذه الرحلة

ثم إن هذه الرحلة الأولى لم تكتمل إلا حين عدت إليها مرة أخرى الآن (عام ١٤٢٣ - ٢٠٠٢) .

* * *

كنت قد عبرت الأولى من جدة التى أقمت بها فترة ، قبل أن أصل إلى مكة : وصولاً إلى جسر الجمرات ، ثم ها أنا أعبر الثانية الآن من جدة إلى المدينة مباشرة لأكمل مراسم العمرة . .

كانت الأولى تتماشى مع الظروف القاسية التى عرضت لها فى موسم الحج .

وها هى الثانية تمضى بنا إلى مكة لإكمال تطوع آخر لم أكن قد أديته فى الرحلة الأولى ، وفى الحالتين لم أكتف بالنظر والتأمل عند المدينة ، فى زيها الجديد ، بل سبقت إليها مرحلة من مراجعة أغلب رحلات الأرض المقدسة من عرب وأجانب ، فضلاً عن رصد ما طرأ من أحداث وتداعيات ، وما تغير على المستوى الإبستمولوچى والميثولوچى على المنطقة فى الحقبة الأخيرة .

وعلى هذا النحو ، كانت الرحلة قد اكتملت - خلال سنتين - أو كادت تكتمل ، وفى كل الحالات كنت ألاحظ ما يطرأ علىّ - فضلاً عن الحس الروحى الشفيف - غيمة من الحزن ، التى كانت تمتلك كيانى لحجم التغييرات السياسية الداخلية والخارجية ، ولحال الناس حجاجًا أو معتمرين ، ونحن نقترب من منتصف القرن الخامس عشر الهجرى (بدايات الألفية الثالثة الميلادية) ، ومع هذا كله ، لم يغادر الوعى أعماقى قط ، فقد كنت أردد دائمًا الآية الكريمة : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ (يونس : ٤٤) .

وعلى هذا وجدت نفسى أدعو للخروج من هذا الواقع - المظلم الظالم - بين طرفى سكين حادة ، لابد من الانتباه لهما قبل السقوط فى وهدة اليأس والألم ، كان الحد الأول ، عامًا ، هو قصور العلماء وولاة الأمر ، ومن ثم ، العامة والأمة . . وثانيهما ، خاصٌّ ، قبل السقوط ، وهو الوقاية من السقوط أو الحرص ألا أسقط فيه رغم القوة التى تدفعنى إليه كيلا أصبح من « القوم الكافرين » .

فالإسلام يربأ بمعتنقه عن اليأس ، ويربأ عن اليأس بالحركة والوعى الإيجابى . .

كتبت فى أوراقى الخاصة :

هبطت إلى مطار جدة فى الثالثة من صباح ٢١ أكتوبر من العام ٢٠٠٢ . .

وصلت من القاهرة إلى جدة . .

ولازمنى حين هبطت إلى مطار جدة هذا الإحساس الروحى الشفيف والحزين أيضًا ، لقد جئت إلى جدة هذه المرة خصيصًا ، المرة الماضية أرغمنا للخروج من مكة إلى جسر الجمرات تحت ضغوط نفسية وقدرية لم يكن لنا بها مقاومة ، ومن ثم ، لم أستطع أن أخلص هذه المرة من مرارة قديمة عبرت بها إلى جدة (الميناء الجوى) ، وعانيت - كما رأينا فى بداية التجربة الأولى ، حين تعرضت لويلات كثيرة من زوجتى ، غير أن الوصول إلى جدة ، كان معناه هنا الوصول إلى غياب كل الوعود - وقد كانت رسمية - والتخلى عن قيمة الأوراق التى بين أيدينا ، ومهما يكن ، لأعد لهذه الزيارة الأخيرة .

كان علىَّ لإكمال هذه الزيارة الآن التهيؤ للذهاب إلى المسجد النبوى ، قبل الذهاب إلى المسجد الحرام .

كان علينا - وقد أصبحنا الآن فى مطار جدة - التهيؤ إلى رحلة شاقة نعبر فيها صحراء قاحلة طويلة سوداء قاتمة أثناء الليل إلى مدينة الرسول ، التى عاش فيها أزهى سنوات الدعوة ودفن فيها .

وصلنا بعد الفجر بليل ، كان الشروق فى طريقه للاكتمال .

جاوزنا قرابة الخمسمائة كيلو للوصول إلى مسجد الرسول فى هذا الصباح الندى ، ونحن نحمل مددًا روحيًا عاليًا ، ورغم أن تكوينى عقلى خالص ، فقد تعلمت

أن القلب الذكى هو من أول شروط الإيمان ، بل إن العودة إلى العقل لاتخاذ القرارات أو اليقين إنما كان يمر بالقلب الذكى دائمًا : فإن (تستفتى قلبك) حكمة كان يعلقها الرسول - ﷺ - فى رأس كل مؤمن .

المهم ، لاح مع إشراق الصباح هذا البناء الفخم الضخم للمسجد النبوى ، والذى صرف عليه من الخزانة السعودية بشكل فاق كل تصور ، فقد كانت السياحة الدينية هذه الفترة - فيما يبدو - أكثر ما تحرص عليه السعودية ، التى تعانى من تقلص واردات البترول ، وتعانى من تجميد مليارات الدولارات فى الخارج فى عاصفة مانهاتن أو خديعة (بن لادن) ، التى أصبح بعدها الإسلام هو الشر الأعظم (إيقاع التعبير يذكرنا بإيقاع تعبير مشابه ، كان يطلق فيما مضى على الاتحاد السوفيتى حين كان هو العدو القائم) ، ومن هنا ، كان لابد أن يكون هذا البناء بهذه الأبهة عما كان من سنوات قليلة ، إننا أمام واجهة ضخمة ، تحكى المهابة العالية السامية التى وجدت شبيهًا لها فى كثير من مدن إسبانيا ، قبل أن يخرج منها المسلمون أو بعدها . .

لم تلفت نظرى فخامة البناء وملحقاته وحسب ، وإنما - أيضًا - وهو ما ستتمهل عنده فيما بعد سلسلة من الفنادق الضخمة الأكثر ارتفاعًا وفخامة ، السامقة أمام المسجد النبوى ، كأنها هدفنا الذى جئنا من أجله وإلى هذا المسجد الذى يحمل سر التاريخ وليس واجهته . .

كان دور المسجد معروفًا . .

أما دور هذه الفنادق الضخمة - التى وجدت ما يفوقها فى مكة - كان دورًا تجاريًا خالصًا ، رجال الأعمال - مهما تكن جنسياتهم - قاموا بالعمل لإكمال المشاريع الضخمة فى عصر الشركات متعددة الجنسيات ، وفى زمن العولمة الاقتصادية والثقافية ، التى كانت تفعل كل شىء من أجل عيون هذه الرأسمالية الوقحة الشرسة .

هذه العولمة التى وجدنا المشاهد الأخرى لها - مقابل مشاهد الثراء فيما يسمى الآن « الحج السياحى » هناك مشاهد يندى لها الجبين للحج والعمرة ، يتكدس فيها آلاف القادمين من أنحاء شتى بشكل مزر ، وفى مصر بالذات عرفنا مثل هذه المركبات البرية

والبحرية ، التى تخلو من أى حرص على قيمة الإنسان ، فضلاً عن النصب والاحتيال على الفقراء ، الذين لا يحلمون إلا بزيارة آل البيت .

وعلى أية حال ، لم تذكرنا هذه الأبنية أو الفنادق الفخمة بدور الخانات القديمة هنا إلا بما يذكرنا النقيض بنقيضه . .

كنت كلما خرجت إلى قبر الرسول - ﷺ - تواجهنى هذه الأبنية التى تزخر بالمحلات التجارية تحتها وحولها ، والتى تزخر (بكل) صنوف الأدوات التى يقبل عليها المتسوق .

وكنت إزاء هذا كله أمارس العبادة اليومية فى المسجد بشكل جهدت أن أهيأ نفسى خلالها وبشكل يتماشى مع عظمة العقيدة ، لا خداع الأبنية وملحقاتها ، كان القرآن الكريم قد ملك على كيانى ، كنت فى سنوات عمرى السابقة شغلت طويلاً بالتفسيرات الكثيرة التى التقيت بها وسهرت معها ليال طويلة ، ورغم ما كانت تزخر به (كل) هذه التفسيرات من إسرائيليات ، فلم أتفرغ تمامًا لقراءة القرآن بشكل شمولى وتركيز واع . .

كنت قد قطعت عهدًا على نفسى أن أعود لقراءة القرآن الكريم بشكل ، لا يفصل بين سورة أو سورة ، أو بين آية وآية مما يعطل ملكة الوعى الجاد . .

على أن طبيعتى قاومتنى طويلاً ، فلم أكد أقترب من الانتهاء من هذه القراءة الأولى حتى غلب على السعى إلى (الكتاب) الكتاب التراثى أو الحديث ، الذى يجعل من موضوعه الكتاب القرآنى ، ومن ثم ، مضيت أمتاح الذاكرة حين كنت هنا قبل خمسة عشر عامًا ، فقد كانت هنا (مكتبة) ما كنت أصعد إليها عدة درجات ، حتى أجد قاعة كبيرة زاخرة بأصناف كتب التراث القديمة ، فضلاً عن بعض المخطوطات . . وكلها لا تخرج عن التفسيرات والأحاديث والاجتهادات التراثية - فحسب . . استعدت الذاكرة ، وأنا أمضى بين أبواب المسجد النبوى ، اكتشفت أن فى باب (عُمرَ) مكتبة قائمة هناك . .

كنت قد اتفقت مع زوجتى أنه بين كل أذان وأذان يتفرغ كل منا - أنا عند الرجال وهى عند النساء - لقراءة القرآن . . فإذا بى فى هذا الوقت أتجه إلى هذه المكتبة ، فأجد

كتبًا تشبه إن لم تكن تتطابق مع الكتب القديمة ، غير أنها زادت بالكيف نفسه ، و(غلفت) بورق مقوى ، وحصلت على أرقام وتنظيم أكثر . .

كان التغيير فى الشكل ، أما المضمون فكان هو التراث القديم .

كنت أذهب إلى المكتبة من آن لآخر ، وأنا أحمل ورقًا أبيض وأقلامًا خبأتها فى ملابسى ، وعقلاً يدرك أن أمامه كمًا هائلاً من كتب التراث ، ولكنه لم يتردد أن يستعيد مما سبق أن قرأه ، ويستفيد ما سبق أن أعرفه دون أن يقرأه ؛ إنه يقرأ ما يريد بوعى شديد . . هل أعود إلى قراءة التراث ، ثانية ، وأنا أقترب من الستين ؟

لقد فرغت من هذه المهمة من سنوات بعيدة . .

بل وجاوزتها حين أضفت إلى التراث الحديث ، فحاولت من إكمال دائرة التراث والحديث ، كنت واعيًا لرواد النهضة سواء فى عصر النهضة الغربى فى القرون السابقة ، أو عصر النهضة العربى الذى عرفناه منذ القرن التاسع عشر ، وإن كان اعترض نهره الفياض كثير من ارتدادات الحاضر ونكساته ؛ ومع ذلك ، عدت إلى هذا التراث . .

وعلى هذا النحو ، وجدت نفسى بين (كل) هذا الكم الرهيب من التراث القديم .

وكان الجديد ما جاء أخيرًا منه لا يتعدى عددًا قليلاً ، ويعود إلى أزمنة بعيدة فى العصر الحديث . .

كان تراثًا خالصًا .

وكان إعجازًا بيانيًا خالصًا .

وكانت جهود جبارة أشارت إلى البيان والإعجاز ، وهذا الإنجاز الهائل دون أن تكون بالضرورة ابنة عصرنا الحديث ، وإنما كانت ابنة زمن آخر ، لم يقدر له حتى الآن أن يقترب من العصر الحديث ، ويتفاعل التراث بالهوية الإسلامية والعربية بالحاضر (بالتكوينات العصرية والرقمية) . .

خطر بذهنى وأنا أقرأ الكتب التراثية أحد المثقفين من بين المنتمين إلى كلية علمية عملية - كلية الزراعة - فى أحد اجتماعات المثقفين - وهى كثيرة هذه الأيام - . . وقد

ترك ليدلى برأيه ، إذ راح يصيح حوله فى المثقفين ، الذين تحدثوا طويلاً عن التراث بما يشبه النهر : « - فى عصر الهندسة الوراثية حيث الحاجة إلى الاكتفاء الذاتى ، أو تعرف الثورات العلمية التى تحفظ لنا استقلالنا وقوت يومنا ماذا نفعل بالتراث . . اتركوا التراث وتنبهوا إلى ما يفعله الغرب (- الأمريكى والصهيونى) خاصة بنا الآن » . .

لم أستطع أن ألوم أستاذ الهندسة الوراثية ، لكننى لم أستطع أن أنصاع لرأيه تمامًا ، فكما يجب التنبه إلى ما يجرى حولنا ، وكما يجب التبه إلى الثورة التقنية ، قبل أن تفوت ، بعد أن فاتت الثورة الصناعية ، يجب أيضًا - حدثت نفسى بين عدد كبير من القارئين من طلبة الكليات الدينية - التنبه إلى هويتنا وشروط تعرفها ، وطبيعة الاقتراب منها .

فإذا كان الحديث يأخذ حيزًا شاسعًا - كما نعرفه فى المعامل والبحث العلمى ودرجة الاهتمام الفائق به فى الغرب الآن - فإن التراث يجب ألا يغيب عنا كثيرًا ؛ فالتراث إذا تنبهنا له فى بداية الألفية الثالثة يحقق وجودنا ، ويؤكد هويتنا ، ولا يجب أن نتخلص من التراث أو الماضى - قط - من أجل الحديث والحاضر فقط .

كنت طيلة تعرفى كل هذه المراجع والمصادر التراثية مهتمًا أشد الاهتمام بالقضية ، التى أثارها العم سام القبيح أخيرًا بالاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل ، كان علىَّ البحث فى الكتب القديمة عن العلاقة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى فيما تصوره سورة الإسراء ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا** ﴾ (الإسراء: ١) .

شغلتنى كثيرًا هذه القضية قبل أن أعبر إلى المسجد النبوى ، وها هى المصادر التراثية القديمة أمامى ، وبعض المصادر الحديثة تعرض للآية الكريمة ودلالاتها .

ما العلاقة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ؟

وما البراهين التى تجعلنا نرى فى القدس الآن أثرًا إسلاميًا يرتبط بعقيدتنا وهويتنا؟

ما العلاقة بين المسجدين / الرمزين ؟

المهم شغلت طويلاً بهذه القضية ، وأنا أحرص ألاّ أستغرق بفكرى بعيداً عن العقيدة ، وفى الوقت نفسه جهدت ألا أبعد عن بكائهم الطويل المستمر كالتعديد فى الريف المصرى ، وهو ما أراه الآن ساطعًا أمامى فى الواقع ، وفوق هذه الأرض ، وفى إطار هذا الباعث أو المرجعية التى تشير إلى أن العدو (الآخر) الآن لدى الولايات المتحدة الأمريكية أصبح وفق (استراتيچية) محكمة هو الإسلام عوضًا عن الشر الأكبر قبل ذلك .

كان فى ذهنى وأنا أوالى الاطلاع على مصادر تراثية ، لم أستطع أن أعثر عليها فى أماكن كثيرة ، أن أعيش أكثر فى جو النص القرآنى ودلالاته : العقيدة ، التاريخ ، الإبستمولوچى ، الميثولوچى . . وإلى آخر ما يصل بنا إلى نقطة التقاطع بين الأصالة والمعاصرة - بالتعبير الحديث - للتعرف أكثر على جذور القضايا وفروعها .

وسوف أتمهل أكثر عند هذه القضية فى موضع آخر .

المهم هنا ، أننى لم أتوقف عن الغرق فى المصادر التاريخية قرابة خمسة أيام ، بين كل صلاة وصلاة حتى رحلت من المسجد النبوى إلى المسجد الحرام ؛ وأن أكون بوعى قارئ جديد .

من المدينة إلى مكة . .

* * *

وعدت لأوراقى . . . ، لأكتب :

عبرت من جدة إلى المدينة بما يقرب من ٥٠٠ كيلو ، وللخروج من المدينة إلى مكة كان علىَّ أن أقطع مثل هذه المسافة . . .

كانت الصحراء مترامية . .

غير أننى لا أستطيع أن أغادر المدينة ثانية ، دون أن أعود للحديث عن سمات هذا الثراء أو تلك الأبنية الضخمة التى تفوق - حتى المسجد النبوى - وهو لم يكن كذلك حين جئت هنا للمرة الأولى منذ سنوات بعيدة ، لقد غدت المدينة أكثر إغراقًا فى الزمن الغربى ، وأكثر بعدًا عن الطابع الإسلامى . .

فقط الحس العقيدى هو الذى يجعل المؤمنين يأتون إلى هنا . .

يأتى الغالبية منهم . لدافع الروحى الخالص . .

ويأتى الأقلية بدافع البيع والربح . .

لكن الغالبية تأتى ، خاصة من المدن الإسلامية بهدف دينى محض ، ومن ثم ، فإن (كل) هذه المظاهر الغربية لا تلفت نظر الكثيرين .

وهو ما عثرت عليه - وإن يكن بشكل أكثر حدة - فى مكة . .

إن الكعبة - فى مكة - بناء عقيدى ذو تاريخ له جلاله . . بناء لا يزيد طوله عن ١٧ مترًا ، وارتفاعه عن ١٥ مترًا ، تحيط به القدسية التى ينطلق منها من يتهيأ لإكمال مناسك العمرة والحج . .

وكما أن الأمر فى المدينة يتضاءل أمام الحس العقيدى الخالص ، فإن الأمر فى مكة - عند غالبية الزائرين - يتضاءل كذلك ؛ خاصة أن الأبنية الضخمة أمام وحول الكعبة تفوق مثيلتها فى المدينة .

كانت الأبنية الضخمة والفخمة الحديثة الآن تحيط أكثر - بما يشبه الحصار للكعبة . ولأن مكة المكرمة تقع - جغرافيّاً - داخل وادى ضيق ومحدود هو - كما يطلق عليه (بكة) ، فإن المنطقة حوله تمثل منطقة عالية ، تزيد فيها الأبنية التى تزداد علوًا ، والرحالة فى العصور القديمة كانوا حين يسهبون فى هذا الوضع يتحدثون عن الوديان السبعة العالية حول الكعبة ، التى كانت تسيل منها الأمطار نحو هذا الوادى فتغرق الحرم .

وهو ما يشير إلى الواقع الجغرافى ، الذى يمكن أن يتخيله المرء الآن فى وجود الكعبة فى منطقة منخفضة ، فى حين المنطقة حولها عالية ، وتزخر بأبنية عربية ليست لها أية علاقة بينها وبين الرمز التاريخى للكعبة ، فقط المعنى المزيف الذى نجده على واجهة هذه الأبنية الضخمة حين ترصع المشربيات بأشكال ، تريد أن تخدع الزائر بأن هذه الأبنية هى جزء من الكعبة ، وهى أبنية يمكن أن تخدع الزائر لأول مرة لأداء الفريضة أو العمرة .

ومع هذا ، لم يكن هذا ليقف حائلاً بينه وبين هذا الإنسان ، الذى يأتى من البلاد البعيدة والقريبة ، وهو يرتدى ملابس الإحرام (البيضاء) ليقوم بالمناسك المعروفة . . فإذا تغاضينا عن هذه الناطحات فى الخارج لرأينا - وإن يكن من بعيد - كائنات مؤمنة ترتدى ملابس الإحرام ليقوموا بهذه المناسك بدءاً من الحجر الأسود حتى الضلع الجنوبى ، ويبدأونها بالطواف فور دخول منطقة البيت الحرام .

والطواف يأخذ مناسكه الدينية المعروفة . .

بيد أننى قبل أن أكمل الحديث عن مظاهر التغيير الحادة فى مكة ، وما يتبعه من مناسك وإحرام . . وما إلى ذلك يجب الاستدراك - بلمحة - حول الطريق من المدينة إلى الكعبة . . فقد لاحظت أن مظاهر الزمن الغربى التى تتسلل الآن فى بلاد الحجاز (والجزيرة العربية كلها) لا يمكن إغفالها . .

ومن ثم ، سوف أنزع نفسى أكثر لأتمهل عند هذا الطريق ، قبل أن أعود ثانية إلى مكة .

لقد غادرنا المدينة إلى مكة ، وفى الطريق الطويل كان لابد أن نمر على ما يسمى (الميقات) الذى يحرم عنده المعتمر .

ولأننى آت من المدينة ، كان الميقات يقع فى منطقة المشاعر المقدسة التى تمارس فيها الشعائر ، فلا يجوز الدخول إلى هذه المنطقة المقدسة دون ملابس الإحرام ، ولهذه المنطقة حدود تبينها من ناحية وتشكل نهايات الطرق التى تؤدى إلى دخول منطقة المشاعر من ناحية أخرى ، وتقول المصادر الدينية أن الرسول - ﷺ - حدد هذه المواقيت لكل من مر بها . .

ولأننى آت من المدينة الآن ، فإن ميقات أهل المدينة هى (أبيار على) ، وهى منطقة كانت تسمى (ذو الحليفة) بينها وبين المدينة سبعة أميال أو ستة ، وهى أبعد المواقيت عن مكة (بينه وبين مكة بالكيلومترات ٤٥٠ كيلو متراً) ويقع فى شمالها[1] .

(١) صحيح أننى آت من مصر ، لكننى أخرج الآن من المدينة ، غير أن ميقات أهل مصر - منذ التاريخ القديم - كان يمر بقرية الجحفة ، وهى قرية خربة قرب رابغ ، بينها وبين مكة خمس مراحل أو ست ، وتقول المصادر القديمة إن من أحرم من رابغ فقد أحرم قبل الميقات بيسير ، وهى فى الشمال الغربى من مكة ، وبينها وبين مكة ١٨٧ كيلو متراً ، وبين رابغ ومكة ٢٠٤ كيلو مترات . وهو ما نجده فى كثير من المصادر القديمة ، وهى كثيرة . .

وتشير المصادر الجغرافية خاصة أن (ذى الحليفة) أبعد المواقيت عن مكة ، غير أنها لا تبعد عن المدينة المنورة بأكثر من ١٥ كيلو مترًا ، وتقع إلى جنوب غرب المدينة - كما نرى من الخريطة - وتطلق على أبيار على (آبار على) ، ينطلق منها الحاج أو المعتمر من المدينة إلى مكة .

ورغم أن الطريق بين المدينة ومكة مرورًا بأبيار على تبدو بعيدة قد تصل إلى ٥٠٠ كيلو مترًا أو يزيد قليلاً ، فإن الطريق القديم الذى كانت تصل إلى (عيذاب) قرب الحدود المصرية السودانية ، ثم تعبر عند (جدة) ومنها إلى (مكة المكرمة) كانت تصل إلى حوالى ١٢٠٠ كم (بين القاهرة وعيذاب) ، وكانت الرحلة تستغرق ما بين شهر وأربعين يومًا .

أما فى حالتنا هذه . . فإن الرحلة بين المدينة إلى مكة - رغم الميقات - لم تستغرق أكثر من خمس ساعات أو ينيف قليلاً ، وهو ما يشير إلى أن المشقة - وإن تحدث عنها الكثيرون من المسافرين معنا - لم تكن لتقاس - بأية حال - عن المشقة قديمًا ، حيث كان يضاف إلى بعد الطريق ، وصعوبة وسائل المواصلات ، الأخطار التى كانت تحيق بالمسافر سواء من اللصوص أو البدو وفى (صُبح الأعشى) يسهب القلقشندى كثيرًا[١] فى كثير من هذه الأخطار كالحروب المحلية أو الخارجية .

المهم ، وصلت إلى مكة - مرورًا بأبيار على التى سنعود إليها ثانية - على أصوات (لبيك اللهم لبيك . .) ، فهبطنا إلى الفندق ، لنترك أمتعتنا ، ثم نلحق بالكعبة مباشرة وبثياب الإحرام . .

. . ها أنا ذا أعود إلى الضلع الجنوبى (عند الحجر الأسود) حيث الدخول فى المناسك ، فأمر بهذه المنطقة الدينية التاريخية من باب الحجر الأسود والركن اليمانى ، حيث هناك ضلع شرقى آخر ما بين باب الكعبة والملتزم ، أى تجاه مقام إبراهيم وبئر زمزم .

---

(١) انظر : القلقشندى أبو العباس أحمد بن على ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .

ثم ها أنا آتى من ناحية الضلع الشرقى ، من مصر ، مارّاً بأرض صحراوية شاسعة لألبى قبل أن أصل إلى الكعبة . .

وبالفعل ، قمت بهذا كله منذ وطئت قدماى هذه الأرض - بصحبة زوجتى - وبعد إتمام هذه المرة كان على - كما هو معروف - أن أتحلل . . غير أننى فى الأيام التالية قمت بالإحرام والعمرة لمرتين : لأمى وأبى لأقوم بكل هذه المناسك ، مع فارق عن المرة الأولى ، إننى فى المرتين الأخرتين ، كنت أذهب لمنطقة تسمى التنعيم للتأهب إلى بدء عمرة أخرى . .

وعبوراً فوق إجراءات الطواف ومناسك العمرة ، فقد لفت نظرى عدة مشاهد لا يمكن المرور عليها ، وهى مشاهد تستأهل التأمل فيها وربطها بالزمن الغربى . . .

الزمن الغربى المهزوم فيه الشرقى هنا .

* * *

مشـــهد :

وعبوراً فوق إجراءات الطواف وبقية المناسك وهى معروفة ، كان أكثر ما لفت نظرى داخل المسجد الحرام ، حيث تقف الكعبة شامخة أمام كل هذه الألسن المتباينة ، ليس من جنوب شرق آسيا وحسب ، أو من الجمهوريات السوفيتية المنفرطة أو المرتبطة بسلطة ما ، وإنما من بين عرب ، لم أستطع رغم سماع الحديث بينهم ، أو توجيه بعضهم الحديث لى ، لم أستطع أن أفهم ما يقولون . . اللغة الغريبة عن العربية .

واللغة الغريبة التى تنتمى إلى العربية . .

أناس من كل بقاع العالم جاءوا لتأدية العمرة (أو الحج) ، وأدعية بصوت عال لا أفهمها فى الغالب ، ودموع وصيحات تقترب من (التعديد) فى الريف المصرى ، لم أستطع أن أصل إلى معناها ، وإن فهمت أن نغمة الحزن الشديدة العاصفة تغلب عليها .

إن أناسًا كثيرين من شتى أنحاء العالم الإسلامى يعانون كثيراً الآن ، ونظرة عجلى إلى الخارطة العالمية ترينا كم من المسلمين المضطهدين فى أنحاء هذا العالم ،

خاصة بعد سقوط الاتحاد السوفيتى ، وتحول شبح (الشر الأكبر) من الاتحاد السوفيتى إلى الإسلام الذى أصبح إرهابًا ، وأصبح يوصم - ظلمًا وجهلاً - بصفة (الشر الأكبر) أو (محور الشر) . . وما إلى ذلك من التسميات التى تطلق الآن على عدو جديد ، مصنوع أو مفتعل ، لابد من أن تصبح بلاده مناطق لضرب النار لترويض مناطق أخرى . .

أصبح بدهيّاً أن سياسة الولايات المتحدة الأمريكية التى بدت أكثر سفوراً عقب سقوط سور برلين وتبلور (النظام العالمى الجديد) فى التسعينيات ، هى السياسة التى تتحول إلى عولمة ، ولا تلبث أن تتحول إلى (عسكرة العولمة) خاصة بعد عاصفة مانهاتن ، حيث بدا أن المناخ أصبح صالحًا تمامًا لتنفيذ استراتيجية أصحاب رؤوس المال ورجال الأعمال والاقتصاد الغربيين .

كان أكثر هذه الأصوات دلالةً ما رأيته حول - وأمام - الكعبة ، فقد كانت الأصوات الغامضة هادرة ؛ والدموع الكثيرة تجرى فوق الخدود ، وحركات الجذب والشد فى ستار الكعبة فى حركة دائبة متوسلة . .

هؤلاء هم البؤساء فى الأرض ، الصائحون فى لغة أشبه بالصمت ؛ لأنها لا تبين عن الشكوى ، الضائعون فى عالم لا يرحم الضعفاء أو المستضعفين . . الغائبون فى الزمن الأمريكى القبيح والكئيب .

* * *

مشهد :

كان أكثر ما يميز هذه الأصوات ليس الغموض وحسب ، وإنما درجة الأنين العالية ، أغلبها يتجه إلى السماء ، جهرها يترجم بكاءً صامتًا مكبوتًا ، صامتًا وعاليًا ، حزينًا ومجروحًا . .

أغلبها يدور حول نفسه فى النغمة المروعة المكررة لندب الحظ : بشر كثيرون يأتون من جنوب أفريقيا ، وأكثر من شرق آسيا ، وأكثر من دول سمعت أسماءها من المرافقين لهم : كازاخستان وأوزبكستان وتركمانستان وقرقيزيا ومنغوليا وطاجيكستان

وآذربيجان وتتارستان والشيشان . . فضلاً عن أفراد كثيرين من الصين الشعبية وروسيا نفسها ومنغوليا . . إلخ .

ثم هؤلاء الذين يضمون فى جماعات ويميزهم الإمام ، الذى يرتدى السواد فى المقدمة من إيران ، وهم أكثر الحاضرين نشاطًا ، وأكثرهم ترتيلاً ، وأكثرهم حزنًا وصمتًا .

كانت أكثر الأمكنة التى رأيت هؤلاء فيهم فى كلٍ من الساحة الدائرية حول الكعبة ، بالعروض الطقسية المختلطة ، والحديث المرتفع أحيانًا الذى لا يفهم منه شىء ، ثم - وهذا مكان آخر - وجدتهم بكثرة فى أبيار على فى الطريق إلى مكة ، وقد هالنى حيث دلفت إلى المسجد لقضاء ركعتى النية للإحرام ؛ إذ وجدت (جماعات) يجلسون وراء أحدهم ، وبثياب الإحرام ، وببؤس شديد . . وهم يرددون وراءه بصوت هادر مكسور حزين أدعية أو رثاءً أو بكاءً مكبوتًا عن (حالهم) . .

حال العالم الإسلامى فى قبضة الغرب .

حال العالم الإسلامى الذى يعانى الفاقة والظلم والتعصب .

حال العالم الإسلامى وقد أصبح الآن هو (الشر) الذى يجب أن يحاربه ويقضى عليه الغرب (وليس أمريكا وحدها) .

لقد رأيت هذا المشهد كثيرًا . .

جماعات وفرادى : من العرب والأجناس الكثيرة البائسة فى شمال العالم وشرقه من المسلمين ، يعيشون فى غربة الوجه واليد واللسان . .

رأيت هذه المشاهد كثيرًا كثيرًا . .

* * *

مشهد :

والغريب أن هذه الجماعات كانت لا تملك وعيًا كافيًا لما يحدث حولها ، وقصارى ما كانت تفعله للتعبير بشكل مباشر عما تعانيه ، كثير من هذه الأدعية التى كانت تردد حول الكعبة وقريب منها بين جدة والمدينة ومكة .

ووجدت كثيرًا من هذه الأدعية لا تعبر عن الهم الذاتى بعربية صحيحة ، وإنما بلغات لا تمت للعربية بصلة ، اللهم فى (الخطاب) الذاتى ، وبعضها كان - لظروف تاريخية - يكتب اللغة بحروف عربية ، بينما كان التعبير بلغة أخرى تمامًا .

وأكثر ما يميزها هذه الروح التى تدل على الهم الدفين ، ثم التعبير العام الذى لا يشير إلى الربط بين هذا التعبير - وقد كان اليومى منه فى غاية القسوة - والتعبير الدعائى المباشر بأصوات تعكس الهدر اليومى للإنسان المسلم والهم الدفين ، حين تعبر عبارات بأصوات تجهش بالبكاء لا تمت لرقة الحزن فى شىء وإنما إلى قسوة التعبير ، وهى كلها لا تخرج - لضعف اللغة أو غيابها - عن عبارات تقرأ من أوراق تحمل من مثل :

« ربنا نجنا من النار سالمين غانمين فرحين مستبشرين مع عبادك الصالحين مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله رفيقًا ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا الله تعبدًا ورقًا ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك ، . . » .

إلى آخر هذه الأدعية التى كانت تعلو ، لتتردد على ألسنة آخرين عبر الطواف حول الكعبة أو الصفا والمروة .

وما يحمل دلالة مهمة فى ذلك أن مثل هذه الأدعية التى كانت تقرأ من ورق أو كتيبات غير عربية فى الغالب ، كانت تختلط فيها العبارات الإيرانية بالباكستانية . . بالأفغانية . . بالصومالية . . إلى آخر هذه اللغات والدعوات المكتوبة لصاحبها ، التى لا يفهم مضمونها فى الغالب اللهم إلا التعبير الأخير عن التعبير الحزين لما يحدث فى هذا العالم له .

وهو ما كان يحمل هذا التناقض بين الدعاء ومضمونه ، بين غياب الحلم واستفحال الجهل ، بين عمق الهموم وغيبة التعبير عنها بشكل مباشر .

وإذا شئنا أن نكون أكثر دقة فنقول إنها تدل على الواقع المؤلم لهذا المعتمر الطائف بالكعبة ؛ حيث يعكس هذا الحال غياب العلماء وغياب المسلم الواعى . . وهو ما يعبر عنه النص القرآنى الذى كنا نستمع إليه أثناء صلاة الجماعة ، أو بعدها أو فى الترتيل المتفرق هنا وهناك فى باحة القلعة :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٤) .

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأنفال: ٤٦) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (يونس: ٤٤) . إلى آخر ما يعكس حال العامة والعلماء ، المثقفين وولاة الأمر . .

وهو ما كان ينعكس الآن فى كثير من الصور الحزينة التى عثرت عليها كثيرًا ، حين أجد الكثيرين يجهشون بالبكاء بأصوات عالية ، إن الكثيرين يتجمعون فى مكان مثل أحد أركان المسجد الحرام ليقرأوا القرآن بصوت عال يتخلله بكاء مؤس ، أو هذه النهنهات الحزينة إلى درجة الألم الشديد حين يتعلق الكثيرون بأستار الكعبة ، ويصيحون بأشياء يريدونها أو يكبتونها فى هنهات محمومة ، والحراس يدفعونهم بعيدًا عن الالتصاق بجدران الكعبة ، خوفًا عليهم من الزحام . .

إن الواقع يشير إلى أن حبل الوعى والوحدة بين العلماء والعوام مقطوع تمامًا ، وأن الوعى العام لما فى (الخطاب) الدينى غاب إلى حد بعيد .

وإذا كان ذلك كذلك ، فإنه لا يبقى غير هذه المحاولات التى تستغيث بربها من ظلم عباده وتتوسل برسولها محمد (ﷺ) من سوء الحال والمآل . وهو ما لا تستطيع معه أن نتجاهل الطرف الآخر من الصراع ، فإذا كنا نضع حبل التقصير حول رقاب أهلنا من ولاة الأمر أو المثقفين أو - حتى العوام - فإن الآخر (وهو هنا الغرب) طرف لا يمكن أن ننحيه جانبًا .

فالغرب كان قائمًا وموجودًا بكل هذه المشكلات التى تزرع فى أرض المسلمين وفى عقولهم فى كل مكان يوجد فيه هذا (الشر الأكبر) الجديد الذى اكتشفه الغرب - فجأة - عقب عاصفة مانهاتن ، على أن هذا لا يعفى العلماء وولاة الأمور عندنا ، وهو ما يعود بنا إلى غياب العروة الوثقى - والكفر بالطاغوت والإيمان بالله بالشكل الواعى العميق . .

أين علماء هذه الأمة وولاة الأمر فيها فى هذا الزمان . .

وهو ما يتركنا ثانية على فراش الألم . .

* * *

مشهد :

ها هو المسجد الحرام ، تحيط بمساحاته وتوسعاته الجديدة أبنية ضخمة (وقد بناها رجال الأعمال بشكل فخم . .) . . أبنية عالية تحيط بالكعبة ، وبين الكعبة وهذه الأبنية يقبع آلاف من المسلمين الآتين من مناطق الجزر من شتى أنحاء العالم ، يأتون بوجدان مجروح ، ويستمعون إلى خطب زاعقة تأتيهم من ميكروفونات عديدة تنتشر فى الحرم ، لا تخرج هذه الميكروفونات فى حديثها عن الإيمان الذى يقى من عذاب النار ، والتحذير من الخروج عن الدعوة المحمدية لدخول الجنة .

وهى ميكروفونات تحمل فى أصواتها من التشدد للإيمان والصياح فى هؤلاء البؤساء الصاغرين الجالسين فى الباحة أو الخارج ، وتحدثهم عن خشوع المخبتين (هل يعرف أحد من الجالسين هنا معنى لهذه الكلمة ؟) وأعمال الصالحين وسعادة المتقين . .

وقد يكون من المهم أن أنقل بعض هذه الدعوات التى تلقى أو تكتب لتقرأ أثناء الطواف ، وقد يكون من المهم أن ننقل بعضها ، وهى فى أغلبها فى كتيبات ، تحمل الصفحة منها أحيانًا الدعاء بالعربية والوجه الآخر الترجمة إلى إحدى هذه اللغات الغريبة عن العربية ، والتى كثيرًا ما يلقى بها الدعاء فى جماعات . .

وقد يكون من المهم نقل بعض هذه الدعوات ، التى يحث على أن تلقى بالأشواط حول الكعبة مقتصرين على عبارة من مثل :

« اللهم إنى أسألك إيمانًا كاملاً ، ويقينًا صادقًا ورزقًا واسعًا وقلبًا خاشعًا ولسانًا ذاكرًا ، وحلالاً طيبًا وتوبة نصوحة ، وتوبة قبل الموت وراحة عند الموت ومغفرة ورحمة بعد الموت ، والعفو عند الحساب ، والفوز بالجنة ، . . . » .

وقلما تخلور يد من أيدى هؤلاء المسامين ممن لا يتحدثون العربية من مثل هذه النشرات والدعوات العقيدية الخالصة ، والتى لا تخرج قط عن مثل هذه العبارات السابقة بأية حال فى كتيبات كثيرة لا تخرج عن الأدعية التقليدية فى شىء ، يطلق على الدعاء فى إحداها تعبير (الشوط) ، وتتوالى الأشواط ، شوط أول وشوط (دو) وشوط (سوم)، ونضع بين يدى القارئ بعض عبارات من الشوط الأخير (أى الشوط الثالث) ، نقرأ باللغة الغريبة عنا ، ولا نلبث أن نجد الترجمة العربية .

نقرأ على سبيل المثال عبارة من مثل :

« خداوندا ! تودر خواست می کنم به « اسم » نهان وبنهان . . »(*) .

(*) انظر إلى هذا النص - على سبيل المثال - لندلل به على اللغة التى كانت تشيع إلى حد كبير فى المسجد الحرام :

شوط سوم

خداوندا ! ازتو درخواست می کنم به «اسم» نهان وپنهان وپاك وپاکیزه ومبارکت واز تومی خواهم به اسم بزرکت وحاکمیت ازلی ات . ای بخشندة عطاها وای آزاد کنندهٔ اسیران وای نجات دهنده کَردن ها [ی مردیم] از آتش دوزخ ، از تومی خواهم که رحمت فرستی بر محمد وآل محمد ومرااز آتش جهنم برهانی ومرااز دنیا در حال سلامت جسم وایمان بیرون بری وبا امنیت کامل به بهشت وارد سازی وسرآغاز دعایم رارستکَاری ونیمه آن را موفقیت وپیروزی وپایان آن رادرستکاری قراردهی . همانا تویی داننده نهان ها .

ونعود على الصفحة التالية لنقرأ :

« اللهم إنى أسألك باسمك المكنون المخزون الطاهر الطهر المبارك . . » .

والدعوات طويلة والدلالات ظاهرة . .

ونسارع هنا بالقول إن صلاح الإنسان ، ضرورى للمجتمع ، وإن الإيمان بدرجاته العالية هو الذى يصفى النفوس ويحيل إلى العقل : غير أن هذا كله يظل مرهونًا بالوعى بما يحدث حولنا ، ففى غياب وعى إسلامى لما يحدث من استبداد الآخر (الغرب) بالإنسان العربى ، أو استبداد الآخر (ولاة الأمور والحكام) بهذا الإنسان ، يحول بين فهم الرسالة التى جاءت العقيدة من أجلها ، فلم تكن العقيدة إيمانًا وحسب ، وإنما الإيمان الذى يؤكده العمل والحث عليه ، والجهاد ليس هو الجهاد الأكبر الذى حثنا عليه الحديث القدسى ، وإنما الجهاد الأصغر أيضًا (جهاد النفس) الذى هو - بشكل أكيد - الجهاد فى العمل ، وتأكيد الوعى الإنسانى بما يحدث حولنا .

حدثتنى نفسى وأنا أشهد حركة هذه الجموع حول الكعبة أو الصفا والمروة ، وصولاً إلى جسر الجمرات ، وأنا أردد أن الإيمان الحقيقى يظل إيمانًا تتكامل فيه الدرجة الفائقة من الإيمان بالله وبعناصر العقيدة ، وفى الوقت نفسه . . الإيمان برفض الظلم أو الانعزال عما يحدث حولنا ؛ فالتجمد عند الشعائر والمناسك فقط يظل إيمانًا ناقصًا ، مجردًا ، أعزلاً من أى وعى لشروط الإيمان ، فالإيمان المجرد الذى يقترب من حد الصوفية الغائبة عن أخطار الحاضر ، بل من المؤكد أنه من غير المطلوب فى عالمنا المتردى قط ، ومن ثم ، فهو - الإيمان بالله - لابد أن يرتبط بشروطه ، وأهم هذه الشروط : أن الإيمان بالله يترادف مع رفض هذا الواقع ، ورفض عناصر الطغيان فيه ، فالإيمان بالله ومحاربة الطاغوت فى دنيانا يظل من أهم الشروط ، التى يجب أن يتمسك به المسلم ، وهو ما نفهمه من هذه الآية الكريمة ، يقول الله عز وجل :

﴿ **فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (البقرة: ٢٥٦) .

والقـرآن الكريم ملىء بمثل هذه الدلالات ، التى تدعـو إلى الإيمان الخـالص والفرائض الواجبة ، وفى الوقت نفسه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وشروط التغيير فى الحياة الدنيا . . وما إلى ذلك من ضرورة الجهاد ضد النفس وضد عدو القيم الإنسانية[1] .

* * *

مشـهد :

يروعنا هذا المشهد الذى التقينا ببعض صوره هنا وهنا ، وهى العلاقة الدالة بين الكعبة وناطحات السحاب . .

فبعد الطواف طويلاً داخل الكعبة وخارجها ، وأداء العمرة لأكثر من مرة ، كان يلفت نظرى دائمًا هذا التغيير الذى طرأ على المنطقة ، لقد قرأت كثيراً فى بناء بيت الله ، والتطورات التى حدثت له منذ هبط آدم وسعى إبراهيم ، وصولاً إلى الملك عبد العزيز وخلفائه حتى الآن ، فلم يروعنى هذا القدر من التغيير كما راعنى الآن . .

التحول هائل .

والتغير كامل .

وهو تحول أو تغير يبدو لمن يأتى ليقيم السقوط غائبًا ، فمن يأتى إلى هنا - فى الغالب - لا يكون نصب عينيه غير المناسك الدينية ، غير أن من يحاول أن يخرج بعينيه أو عقله خارج الكعبة يروعه قدر التغيير الكبير . .

---

(١) يزخر القرآن الكريم بالوعى بضرورة العيش فى مجتمع يعى شروط وجوده بالتمسك بالعروة الوثقى : ومن ذلك :

- تغيير ما بالقوم : ٨/ ٤٥ - ١٣/ ١١ - ١٦/ ١١٢ .
- الوصية بالآخر داخل الوطن والعقيدة : ٤/ ٣٦ .
- الدعوة إلى الجهاد : ٢/ ١٩٠ و١٩٥ و٢١٦ و٢١٨ و٢٤٤ و٢٤٦ و٢٥٢ و٢٦١ أيضًا ٣/ ١٣٩ و١٤٢ و١٤٦ و١٥٤ - ١٥٨ و٢٠٠ .

لمزيد : انظر (المعجم المفهرس) لمروان العطيـة ، وهو فى نهاية طبعة القـرآن الكريم ، ط٦ ، دار الفجر الإسلامى ، دمشق ١٤٠٤ .

ثمة ملاحظة ، لا يجب أن تفلت منى الآن قبل الاستطراد ، ففى الزيارة الماضية ، بعد ١١ سبتمبر كنت ألاحظ أن عربات النظافة ، وقد كانت خاصة بالتنظيف ، وبأعداد كبيرة ، مكتوب عليها (مجموعة بن لادن) ، وفى الزيارة الأخيرة ، اختفت هذه العبارة بلصق ما يخفيها ، فى حين أن المسئولين لم يستطيعوا حذف هذه العبارة من على الملابس ، التى ترتديها عاملات النظافة بشكل خاص ، ربما لكثرة هذه الملابس التى كانت تعد بكميات مهولة .

المهم هنا أن ثمة محاولة لإخفاء اسم (ابن لادن) صاحبت الحملات المعادية للمملكة ، التى كانت تتمتع بقدر كبير من الصداقة مع الولايات المتحدة لعوامل وأسباب استراتيجية ، حرصت عليها الولايات المتحدة فى السابق . . ليس هنا مجالاً للإفاضة فيها . .

وهو ما يعود بنا إلى المسجد الحرام .

إننا خارج المسجد الحرام أمام هذه الناطحات ، والبوتيكات ، بل ومحلات السوبر ماركت والأسواق التى يغلب عليها الطابع الغربى فى المقام الأول ، ثم يتلوه الطابع الآسيوى بعد ذلك سواء فيما يقدم أو فيمن يعملون بهمة ونشاط كبيرين ، يتعثرون فى العربية ، ولكنهم يعملون بدأب شديد . .

على أن التغيير الذى يحدثه مصباح (العم سام) الآن - ليس مصباح علاء الدين - وصل إلى هنا أيضًا ، وقد لاحظنا فى الزيارة السابقة كيف أن مشهد الخروج من الكعبة كان يتلوه - مباشرة - مشهد « كنتاكى » إذ لا تتوقف الحركة فيه ؛ فالرجال يأتون بالأطعمة المعروفة ، والنساء المحجبات يمارسن الالتهام والشراء . .

غير أنه يبدو أن العم سام انتبه إلى أن الصورة الضخمة لكنتاكى وملحقاته كانت زاعقة أكثر مما يجب ، ومن هنا ، فقد لاحظنا تغييراً ، ليس فى التوجه وإنما فى الوسيلة .

فى المكان الضخم استبدل بهذه (اليافطة) الضخمة التى كانت تشير - كما لاحظنا من قبل - إلى الرموز الأمريكية فى الأطعمة (كنتاكى) بالبنط الكبير ، ومن

ثم، التحول الثقافى . . استبدل بها عنوانًا آخر هو KFC وعادت اليافطة الضخمة إلى المكان نفسه وإن يكن ببنط أصغر إمعانًا فى التمويه : (دجاج كنتاكى) و (بيتزا هت) وإن لم يخل من الإعلان عما تقدمه سلسلة المحلات الأمريكية للحجاج من وجبات طيبة وخدمات مغرية . .

والواقع أن هذه الرموز الغربية أصبحت أكثر فاعلية فى وجود سلسلة الفنادق الضخمة التى قامت - كما فعل أصحاب المطاعم الأمريكية - باستخدام وسائل أكثر خداعًا للزائر ، إذ إن التصميم العربى من شبابيك وزوايا زخرفية عربية وطابع تاريخى عربى احتل الواجهة، فى حين إننا لم نفارق أسماء من مثل (هيلتون) و (كونتنتال) . . وما إلى ذلك .

وفضلاً عن الأبنية الضخمة : الفنادق والمحلات والأسواق الثرية إلى درجة عالية، نجد - فى المقابل - أحياء فقيرة ، ماتزال ، تعكس واقع (أم القرى) منذ أهملت فى القرون السابقة ، وفى المقابل ، فإن ثراء المناطق الفخمة يقابله فقر المناطق الفقيرة ، غير أن أكثر ما يلفت النظر هنا أن الخارج من المسجد الحرام يجد أمامه السلسلة الفخمة من هذه الأبنية ، وهى أبنية تصل فى ارتفاعها إلى درجة يستطيع من يسكن فيها - باسم أداء الفريضة أو العمرة - أن يرى الكعبة تقبع فى مكان ناء ، يهبط إلى نهاية الأودية التى تتكون منها جغرافية أم القرى ، ويرى الكعبة والطواف حولها ، وكل ما يمكن أن يقوم به المسلم من أية بقعة من العالم .

البشر داخل المسجد الحرام وخارجه .

الرمز داخل المسجد الحرام بما يحمل من أناس فقراء من شتى أنحاء العالم ، والبلاط الضخم خارج المسجد الذى تقيم فيه مثل هذه الجموع البائسة المشردة ، الباكية تعكس لنا (حالة) العالم الإسلامى اليوم .

هل يمكن المقارنة - حين نستعير عصر العولمة - بين السادة ساكنى الناطحات - وهم قلة لكنهم فاعلون أقوياء - والكثرة - وهم كثرة بؤساء باكون ، ثم نمضى مع هذه المقارنة مع التغييرات التى حدثت فى العالم عقب عاصفة مانهاتن ، فنقترب من هذه

الجموع ، لنفسر أكثر هذه (الحالة) ، بعد أن تحولت العولمة الاقتصادية إلى شيء أقرب إلى (عسكرة العولمة) ليس الاقتصادية وحسب ، وإنما فى كل الميادين حيث تقوم الولايات المتحدة الأمريكية بفرض سيطرتها العاتية على كل فقراء العالم - الإسلامى - وأثريائه من السادة المتعاونين من بين ولاة الأمر من السياسيين ، أو من بين رجال الأعمال الجدد ، ثم الضلع الثالث فى مثلث الهيمنة العسكرية وقد مثله الآن من الفنانين والمثقفين . .

هل ابتعدنا عن العالم الروحى الذى جئنا إلى أم القرى من أجله ؟

لنعد إلى عقولنا أكثر ، فإن هذه النظرة الهوجاء لن يمكننا الإعلان عنها ، أو التعبير بها عما نعانيه الآن ، ولنعد إلى فندقنا المتواضع البعيد عن الكعبة ، الذى يختفى فى الشوارع الجانبية وراء أسوار هذه الأبنية الضخمة من ناطحات السحاب .

على أننى لسوء الحظ ، وفى اليوم الأخير ، أصبت فى حادثة أمام الكعبة ، مما ترتب عليه كدمات عنيفة جداً فى ساقى اليسرى ، ومن ثم ، تحاملت على نفسى ، للذهاب إلى الفندق ، بعد أن عانيت طويلاً فى مستشفى « أجياد » لمحاولة الحصول على علاج دون جدوى .

لحسن الحظ كنت قبل ذلك بقليل قد انتهيت من أركان العمرة : الإحرام والطواف والسعى وواجبات العمرة بشكل عام[1] ، فودعت الكعبة ، وتهيأت بعد الصلاة للمغادرة إلى خارج المسجد الحرام ، اكتفيت بالعودة إلى الفندق ، وابتلعت عديداً من المسكنات ، واستخدمت كثيراً من المراهم فى ساقى التى كنت أحس بها تزداد ألماً وتورماً ، أنتظر مرور الوقت . . كان بطيئاً مؤلماً وأنا أتهيأ للرحيل من أم القرى إلى مطار جدة .

ظللت الليلة السابقة للرحيل مستمراً فى إعادة تلاوة القرآن الكريم بشكل متواصل ؛ حملت القرآن الكريم بين يدى وظللت أقرأ فيه القراءة الكلية ، بمعنى أننا تعودنا فى مقاعد الدرس أو أثناء القراءات المتفرقة أن نتوقف عند آيات معيّنة توضع

(١) قد يكون من المهم هنا أن نشير إلى أن خطوات « العمرة » معروفة وثابتة فى الكتب الدينية . .

أمامنا للدرس أو الفهم ، ومن ثم ، فإن معرفتى - على الجانب الشخصى - كان يشوبها هذا الانقطاع إلى النظرة الكلية للقرآن الكريم ، وحتى حين انكببت لفترة طويلة من حياتى لقراءة (التفاسير) القديمة منها أو الحديثة للقرآن كنت أقع فريسة لهذا المفسر أو ذاك ، سواء فى تفسيره العام ، الذى لا يخلو من توجه شخصى أو أيديولوچى ، أو من السلفية التى كانت تستحوذ على عقول الكثيرين . .

كانت الفرصة مواتية منذ خرجت من مطار جدة مروراً بالمدينة أن أقرأ بنظرة شمولية ، مع الوعى التام بكثير من علامات الوقف ومصطلحات الضبط ، فضلاً عن معرفة متواضعة بتجويد بعض الآيات ، ومن هنا ، ظللت هذه الليلة أحاول أن أكمل الجزء الأخير من القرآن بوعى شديد . .

كانت الآيات تصل بى إلى درجة عالية من العجب : كيف لم أفطن لهذا من قبل؟ كيف لم أقرأ القرآن الكريم قراءة مستفيضة من قبل ؟ كيف اكتفيت بالشذرات التى أعطيت لنا ؟

ولأن الأمر عندى لا يتوقف عند الجانب الفنى أو الإلهى الخالص فى النص القرآنى ، فقد كنت - بالاندماج عضوياً بالآيات - انغمس فى (حالة) المجتمع العربى اليوم . .

أذكر فى هذه الليلة الأخيرة أنه استوقفتنى أكثر من آية ، وأنا أتأمل الواقع الإسلامى / الشرقى اليوم ؛ الواقع ردئ بما يدفع إلى البحث عن المسئول ؛ كيف وصل بنا الحال إلى ما نحن فيه الآن ، كيف أصل إلى أية منطقة فى الأرض المقدسة الآن ، فأجد مجموعات كثيرة ، أغلبها يتحدث لغة ليست العربية ، وأغلبها ينادون الله - عز وجل - فى بكاء مضطرب وعذاب مستمر ، لإخراجهم من الضيق الذى يعيشون فيه ، كيف انتهت هذه الأمة إلى ما فيه الآن ؟

أسئلة كثيرة كانت تطرح وأنا أتلو . . .

تلوت كثيراً وأنا أجد إجابات كثيرة لأسئلة ، تعبر عن الواقع المؤسى ، الذى تعيش فيه هذه الأمة . . قرأت ودونت فى ورق أمامى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (النحل: ٣٣) .

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (النحل: ٣٤) .

﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأنفال: ٤٦) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (يونس: ٤٤) .

تناهى إلىَّ صوت أذان الفجر ، لم أستطع الذهاب ، تحاملت على نفسى ، صليت فى هذا المكان من الفندق ، لم أغف أكثر من ساعة . .

حملت الأمتعة وجررت ساقى إلى العربة ، واتجهت فى ظلام العربة إلى المطار . كانت الساعة تجاوزت الثامنة مساء ، بدا الطريق الطويل مظلمًا بين مكة وجدة ، ومع ذلك ، راقبت الطريق .

بدت المرئيات قريبة مما شهدتها هنا قبل عامين . . أسماء المحلات الأجنبية تكتب إلى جانب العربية ، وبتنوع وألوان كثيرة . .

أذكر فى زيارة بعيدة للرياض أنه كان ممنوعًا أن تكتب أية لغة إلى جانب العربية ، ورويدًا رويدًا ، اكتشفت فى الزيارات التالية ، أنه لم يكتف باللغة الفارسية أو اللغة الأمهرية ، وإنما وضعت اللغة الإنجليزية جنبًا إلى جانب بجانب العبارات العربية فى الميادين والشوارع العامة . كما لم تخطئ عينى عددًا من البنوك الأجنبية فى الطريق ، ولكن ما لفت نظرى أكثر هذه الرموز الأمريكية التى تخترق هذه الضواحى ، فأجدها خاصة فى المحلات الضخمة وفى محطات البنزين ، كما رأيت أكثر من (ماكدونالد) ضخم فى الجانب الأيسر من الطريق . .

عجبت ، ملت فى ظلام العربة إلى أحد الزملاء ، أشير إليه بمحل ماكدونالد الضخم المرتفع الذى فر من أمامنا إلى الوراء مع سرعة العربة ، كأننى أضبط شيئًا هاربًا ، فنظر إلىَّ قليلاً ، ولم يلبث أن دفع إلىّ بجريدة تصدر فى السعودية :

- انظر ، قال فى ظلام العربة . . إن وكيل « ماكدونالد » هنا - وهو عربى - يؤكد لك يا سيدى أن ماكدونالد ينتشر فى أنحاء المملكة كلها : فى المنطقة الوسطى والشمالية والشرقية .

- سمعت أن الثقافة الشعبية وتمثلها ماكدونالد الآن تضاءلت فى المملكة ؛ خاصة عقب أحداث سبتمبر أو قل - أكثر - بعد المجازر اليومية ، التى يتعرض لها أهلنا فى الأرض المحتلة .

- يا سيدى إن المسئولين الكبار يعلنون - وها هى التأكيدات الرسمية أمامك - مبيعات هذه الأنماط المعيشية الأمريكية خاصة هنا لم تتأثر بشىء ، الأكثر من ذلك «وراح يشير بالسبابة إلى ما يكتب أمامى» إن ماكدونالد فى السعودية سوف تفتح خلال أسابيع ثلاثة فروع جديدة . . (و) كما تنوى افتتاح ستة فروع أخرى فى المدن السعودية العام المقبل . .

اعتدل الزميل ، وهو يواصل كأنه يعلن شيئًا مهمّاً ، فيضيف :

- سيصل عدد فروع ماكدونالد إلى أكثر من ٩٠ فرعًا .

ولماذا يؤكد إذا وكيل ماكدونالد أنه سيتم إغلاق مثل هذه المحلات فى الشرق الأوسط .

غير صحيح . .

ألم تقرأ دفاع عدد كبير من المسئولين فى المشرق خاصة وفى المملكة الآن على وجه أخص دفاعًا حارًا عن هذه المطاعم ؟ ألم تقرأ فى هذه الأيام غضب الأمير . . وزير الداخلية لقيام مجهولين بتفجير مجموعة من مطاعم الوجبات السريعة (التصريح منشور فى الصحف السعودية والكويتية فى نوفمبر ٢٠٠٢) .

قال ذلك ، وراح ينظر إلى الطريق والمحلات الكثيرة ، ومنها الرموز الأمريكية تفر وراءنا .

لم أسأل نفسى كثيرًا : هل هذا طبيعى اليوم ، أم أنه يترجم سيطرة الرموز الأمريكية وهيمنة إمبريالية الشر الجديدة المتغطرسة فى عالمنا اليوم .

فالإجابة كانت أوضح من أى سؤال . .

السؤال نفسه إجابة كافية . .

إنها شراسة القوة التى تهدد الآن بأن تدمير العراق ، سيتم إن آجلاً أو عاجلاً ، والتى تؤكد عبر تصريح الكثير من المسئولين فى المشرق والمغرب أن ثمة مساحة من الود أو الخوف لا تنتهى ، تسمح للقوى الأمريكية الآتية بتدمير عاصمة الخلافة العباسية ، بغداد .

* * *

حين وقفت العربة أمام مطار جدة ، شغلت بآلام ساقى الحادة ، والأحمال المتناثرة الثقيلة ، عن أشياء كثيرة أخرى . .

* * *

٣ - مكة..و« المسجد الأقصى »!!

كنت أقف أمام المسجد الحرام حين أبلغنى البعض هذا الخبر . .

لم أكن لأحب أن أبتعد عن مناخ مكة والكعبة وروائح المسجد الحرام وخصوصية هذه الدائرة المقدسة ، غير أن الخبر الذى تنامى إلىّ بعث فىّ - رغم خصوصيته السياسية - مسحة دينية حزينة ، لم ألبث أن اكتشفت أنها تمتد إلى الوراء ، إلى أكثر من خمسة عشر قرنًا .

الخبر ينتمى إلى القدس . .

والخبر يشير إلى هذه العلاقة بين مكة حيث المسجد الحرام ، والقدس حيث المسجد الأقصى . . ماذا ؟ أكد لى الصديق أن الكونجرس الأمريكى (الكونجرس فى مكة وعجبت من المفارقة) أصدر قراراً يعتبر القدس الشرقية المحتلة عاصمة لإسرائيل . .

أعترف أننى كنت من آن لآخر ، أثناء خروجى من المسجد الحرام عقب كل صلاة ، أتلفت إلى المحلات الكثيرة الفخمة أو المتواضعة بحثًا عن صحف ، لكننى كنت أرتد بالبصر - بسرعة - لأن المكان لا يسمح بتشوف الأخبار الخارجية ، ثم إن المناخ الروحى هنا لم يكن ليسمح بالبحث عن الصحف أو التمهل عند الأحداث ، التى تخرجنا من الحالة الدينية التى نحيا فيها هنا ، أو هذا المناخ الذى كان يعى هذه الروحية العالية ، وفى الوقت نفسه ، يشى بهذه المسحة الحزينة فى سلوك الذين أتوا إلى المسجد الحرام من المسلمين المحزونين ، المأسورين فى غابة الاضطهاد فى بلادهم وحملات الإبادة والقتل والترويع . .

فى هذا المناخ كنت كلما سألت عن صحف هنا يجيئنى الرد مباشرة ؛ إما بإشاحة الوجه بغير إجابة ، وإما - برد فاتر - من أن الصحف بعيدة ، هناك ، فى طريق التنعيم بين مكة وقبر السيدة عائشة ، هناك أكثر من مكتبة تراثية ، والمعروف أن هذه المسافة تصل إلى أكثر من خمسة عشر كيلو مترًا ، تبعد بنا عن المسجد الحرام ، ولكن . . كنت أتجمد عند (لكن) برهة ؛ لأعود إلى ما أنا فيه من التردد على المسجد الحرام ، والانكباب على قراءة القرآن ، والغياب بين فريضتين - أحيانًا - عند باب (عمر) ، وهو ما كان يبعث فى حالة من الفرح كلما عثت بين كل هذا الكم القديم من الكتب ؛ فخلف الباب هناك مكتبة تراثية ضخمة . .

وفى المرتين اللتين ذهبت فيهما إلى (التنعيم) - حيث المسجد الواسع شبه المهجور - لم أكن لأجرؤ أن أهبط من العربة التى استقلها لتعرف ما فى مكتبة على يمين الطريق ، أو المكتبات الأخرى القليلة المتناثرة فى شمال هذا الطريق . .

كنت أسأل بصوت خفيض ، إما لإحساسى من نفسى بالخجل ، وإما لأن من معى لم يكن ليسمح لى بشراء الصحف . . أى صحف تبحث عنها ، وأنت أمام الكعبة المكرمة ؟ أية صحف كنت تشير إليها فى هذا المناخ الذى لا يسمح بأى شىء آخر ، غير الغرض الذى جئت من أجله ، خاصة ، أننا مع وفود تأتى فى رعب شديد ، فضلاً عن أن سمة القراءة أصبحت عادة قديمة ذميمة أو غير مجدية .

هكذا كان يصل إلى الصوت الذى يلازمنى كلما تطلعت إلى الصحف .

فى الغالب كنت أصمت ، وأحيانًا كنت أنظر من بعيد مستطلعًا ماذا يحدث وراء هذه الجموع ، وخلف هذا العالم الروحى المصمت تمامًا أمام أى أخبار خارجية ؛ لأعرف ماذا يحدث فى هذا العالم . .

وأعترف أننى لم أكن لأستطيع أن أصمت وأنعزل تمامًا . .

أعترف أننى لم أكن لأستطيع أن أمارس فعل الصمت والعيش فقط فى هذا المناخ الدينى . فحسب . . بل أتطلع إلى رؤية الواقع بعقيدة مسلم ، عليه أن يهتم بأمر المسلمين لقول الرسول (ﷺ) : « **من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم** » . .

بيد أننى أعترف أن خجلى بينى وبين نفسى وبينى وبين الآخرين كان يحول بينى وبين التغيير والتفكير فى شىء آخر ، يشغلنى عن العبادة والقراءة الدينية . . ولذلك . . فإن الخبر الذى تنامى إلىَّ وجد لدى صدىً عنيفًا فى داخلى : الكونجرس والمسجد الأقصى .

اهتممت ، ومددت يدى لأحصل على هذه الأوراق الذى أهتم بمنحها إلى الصديق ، كان يعرف شغفى بما يحدث فى العالم الخارجى .

* * *

كان أول ما فعلته أن وضعت عيناى على وكالة الأنباء لأقرأ خبرًا طويلاً من واشنطن ، جاء بالحرف الواحد :

« إن الكونجرس وافق على تشريع يجبر الإدارة الأمريكية على المصادقة على قرار يعتبر القدس الشرقية المحتلة عاصمة لإسرائيل . . (و) . . إن الرئيس چورچ بوش وقع اليوم الاثنين على قانون يلزم الإدارة الأمريكية بتعريف القدس ، بوصفها عاصمة لإسرائيل . . (و) . . ووضع الكونجرس نص إلزام الإدارة باعتبار القدس عاصمة لإسرائيل ، ضمن قانون تفويض العلاقات الخارجية لعام ٢٠٠٣ . . (و) . . » .

إلى غير ذلك مما جاء فى الخبر الذى بين يدىَّ الآن . .

حملت الأوراق بين يدىَّ واتجهت إلى باب عمر . . .

* * *

القدس عاصمة لإسرائيل . . ؟

كان أول ما خطر على ذهنى أن لا علاقة - أية علاقة - بين القدس وإسرائيل . .

إن إسرائيل التى نعرفها الآن فى بداية الألفية الثالثة هى مستعمرة للصهاينة من شواذ الآفاق الآتين من بلاد شتى . .

وهؤلاء لا ينتمون إلى العقيدة كديانة سماوية . .

كما أن العقيدة هنا لا تنتمى إلى هؤلاء الآتين ، وهم يحملون معهم طائرات الأباتشى الأمريكية وطائرات ال اف ١٦ وقلوب غليظة ودمارًا وذبحًا ورعبًا لم يعرف التاريخ له مثيلاً . .

إن أمريكا تتحدث عما لا تملكه لمن لا يستحقه . .

فكما أن لمملكة بوش الابن الآن عام ٢٠٠٢ تاريخًا وحشيّاً فى السيطرة على الهنود الحمر وإبادتهم قبل قرون ثلاثة ، فإن لمملكة الصهاينة الآن - الآتين من أقطار شتى وبقرارات غربية آثمة - تاريخًا وحشيّاً مازلنا نعيشه فى السيطرة على الفلسطينيين ، من أهل البلاد ومعاملتهم معاملة تفوق معاملة الأمريكيين للهنود بمراحل . .

إن المؤسسة العسكرية الأمريكية تهب للمؤسسة العسكرية الصهيونية ، وكلاهما- الأمريكان أو الصهاينة - لا يملكان ما يمنحانه ويمارسانه الآن بأى اسم . . فمن يحاول أن يتحدث عن القدس للغير أو للذات لا يملك شيئًا من التاريخ .

إن الصهاينة الذين يعيشون الآن فى الأرض المحتلة ليسوا هم يهود التوراة ، كما أنهم ليسوا يهود التاريخ ، فكيف - إذًا - نسمع لمن يتحدث عن القدس على أنها عاصمة لمن هم خارج التوراة - كعقيدة - وخارج التاريخ - كزمن - ثم نسمع لمن يتحدث عن القدس - زيفًا - على أنها عاصمتهم التاريخية ، فى حين أن التاريخ يتحدث عن يهود آخرين أنثروبولوچيا ، ويهود آخرين عقيدياً . .

إن العلاقة بين من يستعمرون الأرض العربية الآن والعقيدة اليهودية علاقة نفى ، كما أن العلاقة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى علاقة إثبات . .

وهنا يأتى الحديث عن هذه العلاقة الأخيرة .

* * *

تأتى بعد ذلك تلك العلاقة الأكيدة فى القرآن بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى . . بين مكة حيث أقيم الآن ، وبين بيت المقدس حيث أرنو . . وهذه العلاقة تصورها لنا الآية القرآنية ، التى نجدها فى الآية الأولى من سورة الإسراء :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

الآية الكريمة إذًا تمنح اقتناعًا بالعلاقة بين المسجدين ، وهى علاقة دينية تاريخية لا ريب فيها (بين يدى الآن عشرات من المصادر التاريخية فى مكتبة المسجد الحرام ، التى تؤكد مثل هذه العلاقة : على سبيل المثال من المصادر القديمة . . الأثر فى الطبرى ١٥/ ٢٨ وابن الجوزى ٥/ ٩ والدر المنثور ٤/ ١٦٥ والثعالبى جـ٣ والإمام جعفر النحاس جـ٤ ، ومن المصادر الحديثة الطاهر بن عاشور ، التحبير والتنوير جـ٣ إلخ) . .

وهناك الكثير من المصادر والمراجع التى تؤكد هذه العلاقة الأكيدة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى . إن هناك حديثًا ينتهى بمصادر عديدة إلى الرسول - ﷺ - فحين يسأل أبو ذر : قال : قلت يا رسول الله : أى مسجد وضع أوّل ، فقال : « **المسجد الحرام** » ، قلت : ثم أى ؟ قال : « **ثم المسجد الأقصى** » ، قلت : كم بينهما ؟ قال : « **أربعون سنة** » . ثم إن - وهذا استطراد بدهى لابد منه - العلاقة بين المسجد الأقصى وبيت المقدس علاقة عضوية .

أضف إلى هذا - فى تأكيد العلاقة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، هذه العلاقة الفريدة التى تصورها لنا الآية الكريمة فى وصف ما حول المسجد الحرام ﴿ **الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ** ﴾ (الإسراء : ١) ، فهى الدائرة حول بيت المقدس ، مهما اتسعت أقطابها تظل مباركة ، وهى ليست دائرة ضيقة تخص المسجد الأقصى كنطاق جغرافى وحسب ، وإنما تمتد إلى المدينة نفسها (بيت المقدس) . .

أضف إلى هذا أن القرآن الكريم يذكر أن القدس كانت - فى أول الأمر - قبلة للمسلمين فى الصلاة ؛ فالرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى تلازم بالرحلة من القدس إلى السماء بما يعرف (بالمعراج) ، وقد كان يمكن - كما يذهب كثير من المفسرين - أن يجعل الله - عز وجل - رحلة الرسول (ﷺ) إلى السماء مباشرة من المسجد الحرام دون الذهاب إلى الإسراء ، أى إلى المسجد الأقصى أول ، ثم - فى هذا السياق - تتحدد الأهمية أكثر حين تتقرر الصلاة على المسلمين ، وأن يتقبل صلوات المسلمين فى المسجد الأقصى ، الذى يتجه المصلون إليه ، وهم يتجهون إليه كقبلة ، ويستحضرون الله عنده فى الصلاة . .

والمعروف أن قبلة المسلمين الأولى كانت فى المسجد الأقصى ، قبل أن تنزل الآية الكريمة بتعديل هذه الوجهة :

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (البقرة: ١٤٤) .

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ١٤٩) .

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (البقرة: ١٥٠) .

وقد يكون من المهم أن نشير إلى أمر بدهى ، يسعى البعض إلى تزييف الوقائع التاريخية فيه ، وهو ما يمثله عدد كبير من الكتاب الصهاينة اليوم ، ممن يدعون أن المسجد الأقصى ليس فى القدس (وهو ما ترددده كتب الاستشراق الصهيونى) ، فمن البدهى أن بيت المقدس هو المكان الذى وجد فى المسجد الأقصى ، وكتاب معانى القرآن الكريم للإمام أبى جعفر النحاس ، كما أن البخارى وعديداً من جامعى الأحاديث الصحاح يؤكدون هذا المعنى ، ففى بعض هذه الأحاديث نقرأ من قول الرسول (ﷺ) قال : « **قمت فى الحجر لما كذبنى قومى ، ليلة أسرى بى ، فأثنيت على ربى ، وسألته أن يمثل لى (بيت المقدس) فرفع لى فجعلت ألفت لهم آياته** » وهو ما جاء فى البخارى ومسلم والترمذى بمعنى قريب من هذا ، نقرأ فى كل مرة (حديث صحيح حسن) .

وحتى الأحاديث التى تذكر الآية الكريمة : ﴿ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ﴾ (الإسراء: ١) تتفق جميعًا على أنه بيت المقدس (تتفق فى هذا تفسيرات الطبرى ١٥/ ٤ والبغوى ٤/ ١٢٧ والقرطبى ١٠/ ٢٠٦ والرازى ٢٠٠/ ١٤٦ . . إلخ) .

ومن يراجع الأحاديث والتفسيرات القديمة والمعاصرة يعثر على هذه الحقيقة : أن المسجد الأقصى هو بيت المقدس ، ويخصص لسورة الإسراء بشكل خاص مساحات كبيرة بهذا المعنى فى المصادر القديمة والحديثة ، ولأهمية هذه السورة نجد اسمها فى المصاحف القديمة . . إنها سورة بنى إسرائيل ، بينما تأتى فى المصاحف الحديثة باسم (الإسراء) وسورة (سبحان) يتفق فى هذا الطاهر بن عاشور حديثًا ، وقبله الترمذى قبل ذلك .

ويلاحظ هنا بشكل خاص أن الطاهر بن عاشور كان أكثر من غيره من المفسرين ، ممن توقف عند هذه العلاقة الأكيدة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى بهذا الشكل ، فهو يشير إلى الدلالة الدينية فى فائدة ذكر مبدأ الإسراء ونهايته ، فضلاً عن التشريع الاجتماعى (يمكن العود هنا إلى التحبير والتنوير خاصة جـ٣ س١٦) راصدًا هذه العلاقة الأكيدة بين المسجدين فى هذا السياق .

إن المسجد الأقصى هو ثانى مسجد ، رفع قواعده إبراهيم - عليه السلام - كما ورد ذلك عن النبى - ﷺ - ففى الصحيحين عن أبى ذر قال : قلت يا رسول الله : أى مسجد وضع أوّل ، فقال : « **المسجد الحرام** » ، قلت : ثم أى ؟ قال : « **ثم المسجد الأقصى** » ، قلت : كم بينهما ؟ قال : « **أربعون سنة** » . فهذا الخبر قد بين أن المسجد الأقصى رفع قواعده إبراهيم لأنه حدد عبره ، وهى من مدة حياة إبراهيم - عليه السلام- وقد قرن ذكره بذكر المسجد الحرام .

ورغم أن الطاهر بن عاشور يسقط فى محظور الإسرائيليات فى التفسيرات السابقة ، ويتمهل أحيانًا عند التوراة ليوسع من تفسيره ، فلا يلبث أن يرتد إلى العلاقة الوثيقة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى أولاً ، ثم يؤكد أن المسجد الأقصى هو كناية عن بيت المقدس ، وليس منفصلاً عنها ، كما يذهب عديد من المستشرقين الصهاينة المعاصرين ، الذين ينتمون إلى الأجهزة المخابراتية والمؤسسة العسكرية الصهيونية فى آن واحد .

وهل نحتاج إلى برهان لنذهب إلى أن المسجد الأقصى هو القدس ، وأن قرار الكونجرس الأخير هو قرار طبيعى .

إنما غير الطبيعى فيه ألا نلتفت إلى العلاقة الأكيدة بين المسجدين .

وأن العلاقة بين المسجدين هى التى يجب أن تدفعنا إلى التنبيه - أكثر وأكثر - إلى أن القدس ليست مدينة عربية وحسب ، وإنما هى مدينة تحمل رموزاً عقيدية كثيرة ، تجاوز كل الأحداث المعاصرة .

إن العلاقة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى لا تحتاج لبرهان ، وإنما ما يحتاج إلى برهان هو من يقول لنا متى يصحو هذا (العالم) الإسلامى ؟ متى ؟

* * *

٤ - جـــدة بين عصـــرين

الطريق إلى جدة :

هبطت الطائرة البوينج ٧٤٧ فى ميناء جدة الجوى (مطار الملك عبد العزيز) صباح الخميس الثانى والعشرين من فبراير ٢٠٠١م الموافق الثامن والعشرين من ذى القعدة ١٤٢١هـ . .

كنت بمجرد أن هبطت إلى مطار جدة قد عانيت من حادث عنيف ، وإن وصفته بالاستثنائى ، كان قد أضاع كثيراً من راحة نفسى هنا . .

ولصعوبة هذا الموقف ودلالته ، سوف أرجئه شخصياً ، لأصل إليه فيما بعد .

كانت المفاجأة الأولى لى أن مدينة جدة - على عكس ما تعرّفتها فى كتب الرحلات القديمة والقريبة - مدينة متلألئة ، على قدر كبير من التصميمات الحضارية الغربية ، وتكاد تخلو من أى أثر عربى ، اللهم ما تعكسه ملابس العرب ممن يرتدون الأثواب العربية والشماغات المميزة ، ثم شكل النساء السعوديات اللائى يغالين فى تغطية وجوههن ويكاد اللون الأسود يسود سيادة كاملة لدى النساء اللائى لا يظهر من وجوهن أى ملمح آخر .

لم أكن لأستطيع أن أبعد الصور التى تعرفتها فى الكتب القديمة والحديثة حيث كانت - إلى حد بعيد - تعانى من التخلف والأبنية القديمة ، بل إن كثيراً من الرحالة أسهبوا فى أن ميناء الهبوط كان يبتعد عن الميناء الفعلى الذى تبدأ منه الرحلة المقدسة .

وجدة - جغرافياً - تقع فى المنطقة التى تلى سلسلة الجبال من ناحية الشرق ، وهى تتكون فى أغلبها - كما سنرى - من مرتفعات (رسوبية) ، كذلك تشتمل على كتلة من الجبال النارية وعدد كبير من التلال المرتفعة ، ويمكن أن تحدد مساحتها وراء

جبال الحجاز إلى نحو ٢٠٠ ميل ، وفيما بين الشمال والجنوب إلى ما يقرب من ٩٠٠ ميل ، ويتراوح ارتفاع هذه المنطقة ما بين أربعة آلاف قدم وستة آلاف قدم .

ورغم هذا المناخ العام فإن المتجه إلى مكة يجد عديداً من المراعى الشهيرة الخصبة والواحات الغنية والمزارع الواسعة .

ونستطيع أن نتذكر فى هذه المنطقة عديداً من أشعار مجنون ليلى والفرزدق وجرير ، وقبلهم عرفت أشعار امرئ القيس والحارث بن حلّزة وزهير وعنترة . . وغيرهم .

ورغم أن جدة بدت فى الكتب القريبة أكثر معاصرة فى مبانيها ، وطرقها إلى حد بعيد ، فإنها لم تفقد هذا الشكل الذى تأخذه الموانئ الشرقية القديمة مع دخول الكثير من المعالم والتصميمات المعمارية المعاصرة التى بدت مميزة فى مناطق كثيرة منها ، ففيها مناطق تقترب من المناطق الغربية لسرعة سريان مظاهر الحضارة الغربية فيها ، وإن لم تخلو من الأحياء القديمة فيها ، ففى الوقت الذى توقفت فيه أمام بنك يسمى بالبنك الأهلى التجارى على درجة عالية من الرقى التجارى إلى حد بعيد ، ما لبثت أن وقفت فى منطقة قبل نصب أثرى أمام عديد من البيوت العربية القديمة بمشربياتها ومشرفياتها العتيقة جداً . .

ورغم أننا وصلنا إلى جدة فى أقل من ساعتين من القاهرة إلى هذا الميناء ، فإن الرحلة إلى جدة (وهى مفتاح الوصول إلى مكة) ، فيما سبق ، كانت تستغرق أياماً طويلة أو شهوراً من البلاد البعيدة .

وتسهب الكتب القديمة فى الملامح الجغرافية لدروب الحج الطويلة التى كانت تؤدى إلى جدة ، وأشهرها كان درب الحج العراقى ثم درب الحج المصرى ثم درب الحج الشّامى ، و ويضاف إلى هذه الدروب دروب أخرى أبعد هى درب الحج المغربى ودرب الحج الهندى .

كانت الصورة العامة التى تنقلها لنا رحلات الحج القديمة أنّ القافلة المتجهة إلى الحج كان يصحبها فى الغالب حملة مكلّفة بحماية الحجاج ، فأوليا جلبى التركى

يذكر - على سبيل المثال - أن أشقياء العربان والبدو كانوا يهاجمون الحجيج كل سنة وينهبون متاعهم .

ومن هنا ، كانت هذه الحملة تسلح تسليحًا كاملاً خاصة فى العصر العثمانى ليحمى الحجاج - فضلاً عن تأمين حاجياتهم - فى طريق خطرة .

وهذا كان الطابع المميز لرحلات الحج لقرون كثيرة .

ونقف هنا عند عدة رحلات حتى نهاية القرن العشرين لنرى مستويات التفاوت فى استقبال الحجاج لجدة فى طريقهم إلى مكة لأداء المناسك . .

تقول الكتب القديمة إنّ رحلة الحج المصرى - على سبيل المثال - كانت تخترق سيناء فى رحلة طويلة ، ولم تكن - فى الغالب لها محطات ثابتة - غير أنّ الثبات فى مسلك طرق الحج استمر لمدة قرون وصلت إلى خمسة قرون . .

كانت الرحلة تبدأ بتجمع الحجاج من أهل مصر والمغرب والسودان فى منطقة يطلق عليها « بركة الحاج » ، وهى تقع الآن شرق المرج حيث كانت تقوم بها سوق للجمال ومنطقة تسوق ضخمة ؛ ففى هذه المنطقة كان يستيقظ الحجاج فى الفجر ليسيروا فى صحراء السويس مارين بقلعة « عجرود » التى تعود إلى القرن الثالث عشر الميلادى ، والتى كانت تعتبر أول محطة على درب الحج حيث توجد بالمنطقة بئر محفورة فى الصخر . . ولا تلبث قافلة الحجاج بعد التزود بالماء والمؤن بعد أن تدخل إلى سيناء من شمال مدينة السويس مروراً بمنطقة صحراوية وسهلية كثيرة ؛ لتصل القافلة بعد معاناة طويلة إلى مبتغاها .

ويصف لنا بتس طريقًا أخرى للحج ، تأتى من أقصى المغرب العربى .

يصف بتس فى نهاية القرن الماضى (١٨٦١) إحدى هذه الرحلات ، فيضع أيدينا على الطقوس والطرق التى كانت تسلكها القافلة فى أى درب ، فحين يشير إلى القافلة المغربية يشير إلى أنها كانت تتحرك من فاس ومراكش ، حيث يتجمع الحجاج فى هذه القافلة ويلتحقون بها من سائر بلاد المغرب ، وهى قافلة برية فى الأساس ، وعندما يصل الحجاج لمصر يدبرون أصل وصولهم إلى مكة المكرمة والعودة لمصر مرة أخرى .

ويصدر أمير الحج أمرًا للقافلة بالتوقف فى كل مدينة يمر بها ، ليتيح الفرصة لمن يرغب للالتحاق بالقافلة ، ويستقبل أهل المدن التى تتوقف عندها القافلة أمير الحج ببهجة بالغة لمكانته الدينية ، فسعيد هو من يستطيع تقبيل يده ، فإن لم يستطع فعباءته ، ويمضى أمير الحج فى موكب فاخر تصحبه الأعلام والطبول ، ليس هذا فحسب بل إن النسوة يتزاحمن فوق أسطح المنازل ، التى يمر أمامها موكب أمير الحج ، لرؤية المنظر البهيج ، وتزغرد النساء ويصيح الأطفال بفرح . . وما إلى ذلك ، مما يعكس طبيعة هذه الرحلة المقدسة التى كان يسعى إليها الجميع أو يحتفون بها .

وقد بدت جدة - وإلى بداية القرن العشرين - مختلفة إلى حدٍّ بعيد سواء فى أبنيتها القديمة أو شوارعها غير المنظمة فضلاً عن أن ماء الشرب فيها كانت (غير صالحة للشرب) .

المهم هنا أنّ كثيرًا ما اختلطت بمناسك الحجّ كثير من البدع والوثنية ، على سبيل المثال التعلق بكسوة الكعبة بشكل يتحمل من يتعلق الضرب العنيف من خلفه حتى ينتهى من التقبيل ، والتعبير عما يُريد . يقول أحد رحالى بداية القرن العشرين أنه بعد أن يأتى عدد كبير من الناس ليقبلوا الحجر ويتعلقوا بالكسوة ، أتت نساؤهم لتقبيله ، فيضرب الزود رأس امرأته لتصطدم جبهتها فى الحجر ، فيحصل فيها أثر يكون عندهم علامة الحج . . وعندها يصرخ الرجل قائلاً لزوجته :

- حجيت يا حاجة .

فتصيح قائلة :

- حجيت حجيت .

ثم تلتفت إلى الحجر الأسود قائلة :

- حجيت ، خبر ربك أنى حجيت .

ثم ترفع رأسها إلى السماء قائلة :

- تقبل أو لا تقبل حجيت ، ألا تقبل ، غصبًا تقبل !!

ويقول البتانونى هنا الذى زار الحجاز أواخر ١٩٠٩ أن هذا كله قبل وقوفهم بعرفة . ومنه نرى أن اعتبارهم أنفسهم أنهم حجّوا بمجرد الطواف واستلام الحجر قبل الوقوف ، إنما هو بعض ما كانت سنته قريش بعد واقعة الفيل ومحاه الإسلام . .

طريق القاهـرة عيذاب

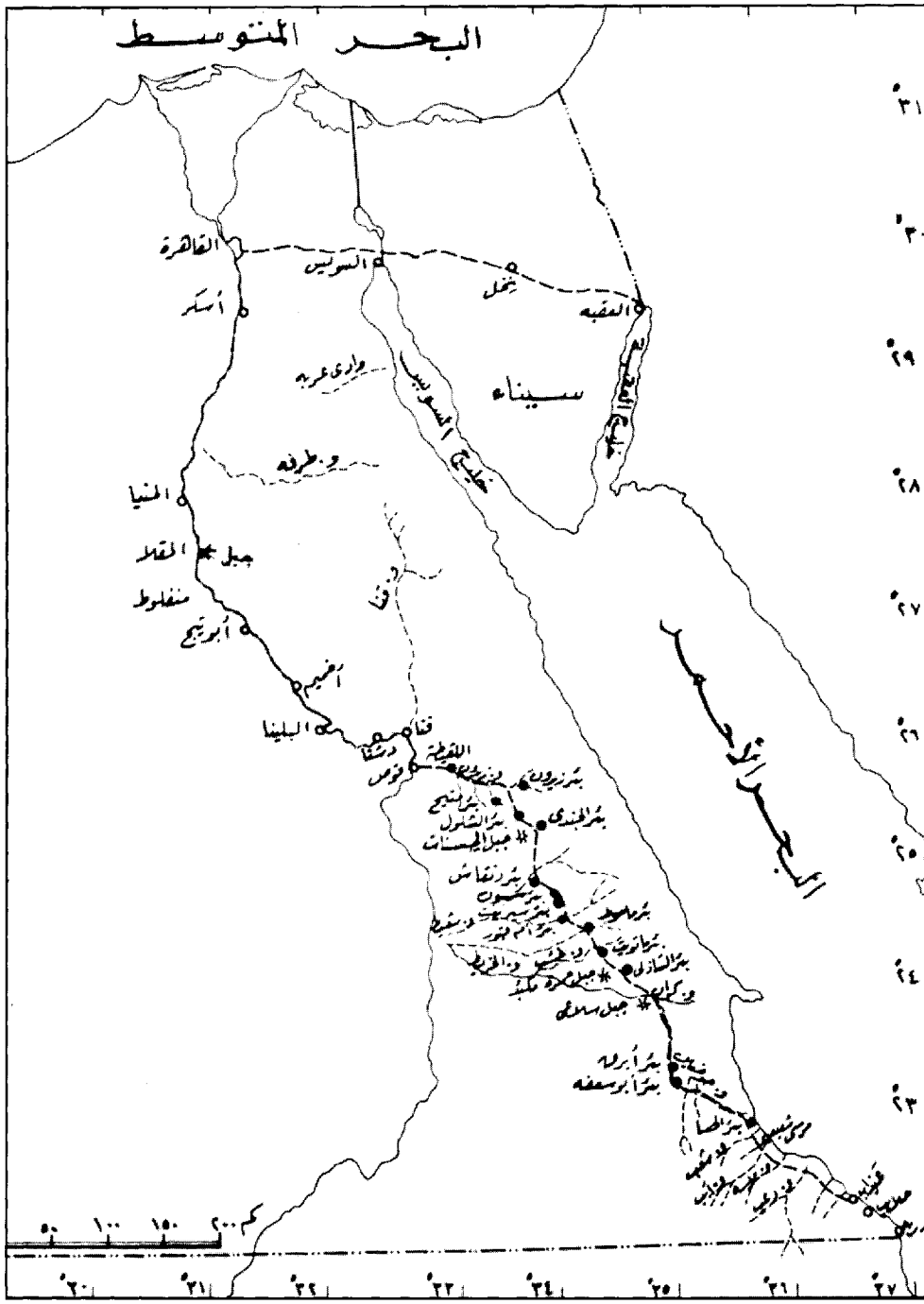

درب الحاج المصرى

طرق الساحل

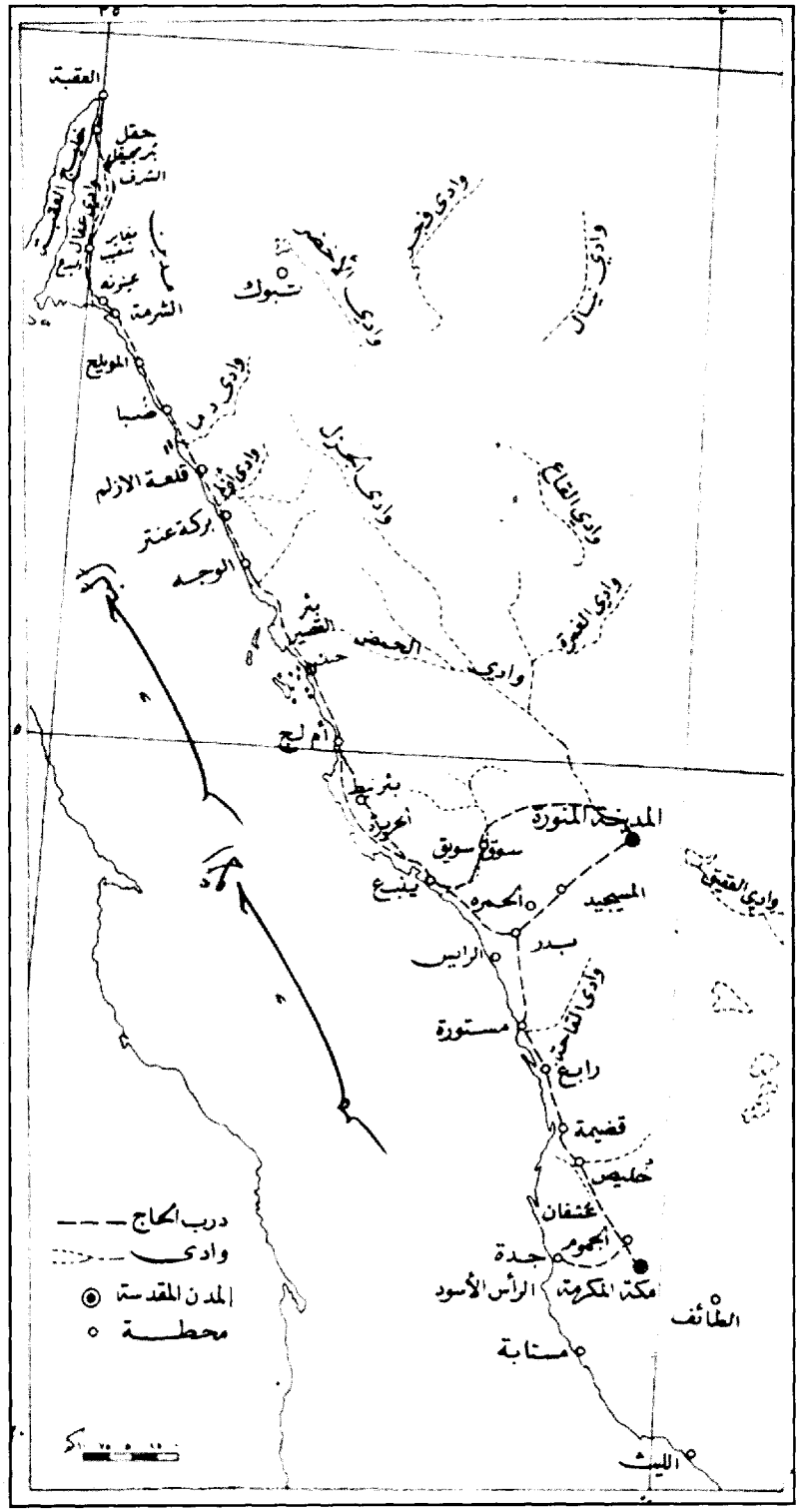

وهو يذكر كثيراً من مظاهر هذه الوثنية التى كنا نعرفها فى بداية القرن العشرين ، مما يعكس - بشكل عام - التخلف العقيدى فى العالم الإسلامى ، وهو جزء من التخلف العام ، الذى كان العالم الإسلامى يعانى منه ، رغم بداية حركات النهضة فى بعض أنحائه .

ونعود مرة أخرى إلى قوافل الحج . .

* * *

وقد تحوّلت رحلة الحج وقوافلها إلى البحر مع الوقت ، ففى الثلاثينيات - على سبيل المثال - كانت تخرج السفينة من خليج السويس لتمخر الطريق البحرى حتى تصل إلى جدة .

وقد رأيت أثناء زيارتى إلى الرياض منذ سنوات فيلمًا تسجيليّاً فى جامعة الملك عبد العزيز لإحدى هذه الرحلات ، التى كانت تقوم من مصر . والمهم هنا ، أن الرحلة قامت بتصويرها وتسجيلها مصر من استوديو (نحاس) المعروف ، وقد رأيت كيف كان الحجاج المصريون من (الأفندية) بوجه خاص يتجهون إلى جدة فى هذه الرحلة ، وفى حين كانت مظاهر الحضارة بادية للعيان فى الجانب المصرى - تصوير فيلم تسجيلى ، ركاب من الأفندية والمسئولين ، مظاهر الحضارة التى كانت قد وصلت مصر فى هذا الوقت . . إلخ - حتى تصل السفينة إلى الميناء ، فإذا بنا فى الجانب الآخر أمام مسئولين من السعوديين يرتدون الملابس العربية الرسمية ، وفى الوقت نفسه لا نخطئ هذا التدهور فى الخدمات على الميناء ، والفاقة التى تعم بها البلاد ، ومع ذلك ، كان الطريق البحرى يعانى من أخطار الطريق البرى .

فما كانت تعانيه دروب الحج البرية ، كانت تعانيه الطرق البحرية ، فكثيراً ما هددت السفن - على سبيل المثال - بالقراصنة فى عرض البحر ، وكثيراً ما يخشى الطريق البحرى خاصة فى أزمنة الحروب ، وقريب من هذا ما يذكره محمد حسين هيكل فى رحلته إلى الأرض المقدسة .

يذكر محمد حسين هيكل فى الثلاثينيات أن تخوفه الأول من الرحلة بحرًا كان مما يشاع من أن السفن الإيطالية - إبّان الحرب - كانت بالمرصاد لأى سفن أخرى فى البحر، مما يهدد سفن الحج بالخطر . .

وحتى حين كانت تصل السفينة إلى شاطئ فى جدة ، كثيرًا ما كانت تعانى من الصدمة بإحدى جزر البحر ، يقول هيكل إن السفينة التى كان يقلها مع غيره اصطدمت بشعب من شعاب البحر الأحمر الناتئة بجدة ، هذه الشعاب المعروفة للملاحين جميعًا . لذلك لا أدرى كيف دفع الربّان السفينة إليه فى يقظة النهار وضوء الشمس .

وقد كان الخطر فى الثلاثينيات كبيرًا على النحو الذى يصوره لنا صاحب (فى منزل الوحى) حتى إنه ساد الباخرة صمت رهيب بعد ضجة التكبير والتهليل التى أعقبت الصدمة . . وكان جلُّ تساؤل الركاب عن « مبلغ الخطر » وهو يوشك أن يدهمنا، ولم يقتصر الأمر عند خوف الركاب المسافرين وإنما رجال الباخرة الرسميون، الذين يختفون عن الأنظار لمدة أربع ساعات حتى اختفى الخطر ، أو كاد يختفى . .

وحين نصل إلى نهاية القرن العشرين ، نلاحظ مع هوفمان (١٩٩٢) أن الطائرة التى تقل المسافرين إلى جدة ، والتى كانت فى الماضى تسير - فى درب الحج المغربى - قرابة عام فى الطريق إلى هذا الميناء ، تصلُ فى ساعات قليلة إلى جدة ، مرورًا بداكار عبر صحارى ليبيا الشاسعة والسودان .

ويلاحظ أنه بدلاً من الموسيقى « المخدرة » التى اعتدنا أن نسمعها عند إقلاع الطائرات ، تبعث من أجهزة الاستماع بالطائرات آيات من القرآن الكريم . .

ويكون على رحلة الطائرة أن تصل إلى منطقة (الميقات) حيث يرتدى الجميع ملابس الإحرام ويتهيأون للهبوط فى إحدى مطارات جدة الخمسة ، حيث تبدأ المناسك الدينية تزيد رويدًا رويدًا حتى يدخل الجميع إلى منطقة الإحرام . .

وهو قريب إلى حد بعيد من رحلتنا التى هبطت بعد أكثر من أربعة عشر قرنًا من الهجرة النبوية إلى مطار الملك عبد العزيز فى مكة المعاصرة فى مساء ذلك اليوم ، بعد تأخير طويل اضطرت إليه الطائرة الضخمة حتى يكتمل قدر كبير من ركابها . .

كانت الطائرة البوينج ضخمة ، فى وقت كان عدد من يقلها قليلاً ، ومن ثم كان لابد من الانتظار ، وهو انتظار أو لنسمه بدقة شديدة (تأخير) كان لابد منه لتصل الطائرة إلى الميناء ، الذى رأيناه من أعلى - قبل أن تهبط - منطقة شاسعة من الأنوار الحديثة والأبنية المعاصرة .

لم تكن هذه هى جدة التى تعرفت عليها فى عديد من الكتب والرحلات ، وإنما هى مدينة معاصرة إلى حد بعيد . . (لابد من الخروج من جدة) . . الخروج من (باب) مكة إلى أيام التشريق .

* * *

٥ - الطريق إلى مكة

مكة / بكة :

.. فجاشت نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم وانفعلت بهذه الذكريات فبكى وهو بجنب الكعبة، وقال : « يا عمر : هنا نسكب العبرات » .

بدأ الخروج إلى مكة مساء السبت (٣ مارس، ٨ ذو الحجة . .) لتتوجه المجموعة الكبيرة من القنصلية المصرية بجدة إلى مكة بملابس الإحرام .

وعلى الرغم من أننا لم نتوقف طيلة الأيام الماضية . . عن المجيء إلى مكة . . فإن المجيء هذه المرة كان بنية (القدوم) أى الطواف والسعى ، ومن ثم ، بدء المناسك الحقيقية .

وسرنا فى طريق طويل على جانبيه الجبال المرتفعة السوداء فى الليل ، وأخذنا فى طريقنا نردد الدعاء المعروف بشكل جماعى :

(لبيك اللهم لبيك / لبيك لا شريك لك لبيك / إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك) .

ولم تكن مكة مدينة مثل أيَّة مدينة . .

كانت تختلف كثيراً عن (كل) المدن الأخرى سواء فى المناخ أو السكان أو البيئة أو الموقع . . إلى غير ذلك مما تتميز بها هذه المدينة .

تقول المراجع إن مكة تقع فى السفوح الدنيا لجبال تسمى السروات ، وهى بهذا تمثل نقطة الالتقاء بين تهامة وتلك الجبال . .

وموقعها يلعب دوراً كبيراً فى تميزها أو اختلافها .

إنها تقع على درجة عرض ١٩ ٢٥ ٢١

وخط طول ٤٦ ٤٩ ٣٩

ولا يزيد ارتفاعها عن سطح البحر أكثر من ٣٠٠ متر .

أما موقعها الجغرافى ، فإن القاعدة فيها تشكل معظم الجبال التى تحيط بالمدينة ، وتمثل الأودية ما بقى من مساحتها ، وأوديتها تقع بين جبالها . .

وأكثر ما يلفت النظر إليها أنه يغطيها ترسبات من الحصى والرمل والطين ، وكان أكثر ما يلفت نظرى ، وأقفُ كثيراً لأحدق فيه ما يغطى جبالها الملتفة حولها من صدوع وترسبات كثيرة حتى لتبدو من بعيد كأنها كتلة جبلية سوداء ، وحين يقترب المرء منها يلحظ أن هذه الكتلة السوداء يغلب عليها التركيب الجرانيتى .

على أن هذه الانكسارات المستمرة كادت تمتد فى كل أنحاء هذه الجبال بشكل يلفت النظر قلما رأيته فى منطقة أخرى ، حتى أننى كثيراً ما كنت أقترب من هذه الكتلة الجبلية أو تلك لألحظ أن الانكسارات تصل من الصغر أحيانًا درجة كبيرة ، كما أنها تزيد فى المناطق العالية خاصةً ، حتى كان يلح علىَّ أن أتأمل لساعات هذه الجبال البعيدة فى أشكالها .

فعلى الرغم من أن أشكالها المتكسرة تبدو أنها من فعل الطبيعة التى تشكلت فى الأزمنة الچيولوچية القديمة ، فإن الخيال كان يمثل لى أن (كلَّ) هذه الانكسارات ترسم أشكالاً كثيرة لا تخلو من معان ، كأن أرى تمثالاً ضخمًا وحوله عدد هائل من التضاريس والصخور المتكسرة ، رغم أن الشكل العام لا يزيد عن كتل جبلية تكونت بفعل التغييرات التاريخية والچيولوچية القديمة (انظر على سبيل المثال : الشكل العام لجبل الرحمة كمثال) .

والرحلات القديمة كانت تصف الطريق بين نجد ومكة ، بأنه طريق طويل تحده صخوراً من كل ناحية وظهور البدو المسلحين من آن لآخر ، فإن الطريق فى هذه الفترة عُبّد تعبيداً كبيراً . وزخر بوسائل المواصلات والكابلات والمحلات الضخمة .

كما أن المناخ يعكس مثلاً لهذا التفاوت ، فالمناخ فى مكة يمثل منطقة انتقالية عن تأثيرات مناخ البحر المتوسط والمناخ الرسمى ، خاصة لتأثرها بالقرب من البحر الأحمر . .

وأكثر ما يميز مكة أنّ درجة الحرارة فيها عالية ، حتى أن كتب الرحلات القديمة كلها كانت تشكو من الحرارة الشديدة التى تعم المنطقة ، حتى أن كثيراً من الحجاج كانوا يلقون حتفهم لدرجة الحرارة المرتفعة ، وإن كانت هذه الدرجة هذا العام بشكل خاص لا تصل إلى هذه المعدلات العالية . .

وعلى أيّة حال ، فإن معدل الحرارة السنوى يصل إلى ٣١° ، وأمطارها تمثل نموذجًا خالصًا للأمطار الصحراوية المتصفة بعدم الانتظام فقد رأيت المناخ الحار مرات ، ورأيت هطول الأمطار التى استمرت لساعات مرات أخرى ، طيلة وجودى فى المدينة هذا العام .

وإذا أردنا أن نتحدث عن مكة ، فإن الاسم يمكن أن نعود به - مثل أغلب أسماء المدن - إلى كلمات ومصطلحات ولغات كثيرة ، غير أنه من المؤكد أن مكة نفسها تعود لتضرب بجذورها إلى أعمق أعماق التاريخ ، ففيها تعرفنا كثيراً من القصص الأولى للبشرية ، وتعرفنا أحداث كثير من الأنبياء قبل بناء البيت أو بعدها ، ويذكرها القرآن بأكثر من اسم لا يخلو من هذا الأثر التاريخى ، فهى مرة مكة التى تقع وسط سلاسل الجبال الشاهقة حولها ، فى الآية الكريمة :

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ (الفتح : ٢٤) .

وهى مرة أخرى بكة بحكم تاريخها القديم وأهميتها الزمنية فى الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران : ٩٦) .

وهو ما تشير إلى عديد من الدراسات القديمة أو الرحلات الجديدة حيث تمثل مكة (أم القرى) مركز الأرض (كما يلاحظ بيرتون) وهو معنى ، لا يحمل بعداً روحيّاً فقط ، وإنما - كذلك - بعداً چيولوچيّاً خالصًا ، ولكنه فى القرآن الكريم يشير فى عديد من آياته إلى البعد العقيدى الخالص ، نقرأ على سبيل المثال :

﴿ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (الأنعام : ٩٢) .

وفى موضع آخر :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴾ (الشورى : ٧) .

حول الحرم :

بالعودة إلى كتب الرحّالة والدراسات الجغرافية القديمة ، نجد أن التطور العمرانى لم يصل إلى أوجه فى مثل الفترة التى نعيش فيها ؛ فعلى الرغم من أن مدخل مكة من طريق جدة لا يبدو أنه تأثر كثيراً بالحركة العمرانية الكبيرة الرسمية ، فإن الحرم المكى بشكل خاص شهد تطورات عمرانية وتوسعات كبيرة لا يمكن إغفالها ، سواء تمثل فى الطرق الدائرية أو الأنفاق أو الجسور والكبارى فى الخارج أو التغييرات الهندسية والحضارية الراقية فى الداخل .

والذى يحاول أن يرصد لهذه التطورات ينتهى منها إلى نتيجة مهمة أن التوسع فى منطقة الحرم وما حولها زاد بشكل كبير ، حتى وصل إلى أطراف المدينة حتى إن حدودها تصل إلى المناطق النائية منها حولها مثل وادى فاطمة وعين شمس والجعرانة شمالاً ، ثم على طريق الليث من الجنوب ، ثم الشرائع العليا ووادى نعمان من الشرق ثم إلى برة والشميسى غربًا .

ويلاحظ البعض أن المنطقة التى تقع فى الشمال الشرقى والشمال الغربى من مكة تزخر بحركة عمرانية عالية ، وهو ما يعود تاريخيّاً إلى أن قوافل الحج قديمًا وإلى وقت قريب كانت تصب إلى مكة من هذه النواحى (على سبيل المثال الطريق العراقى وما وراءه) و (الطريق المصرى وما وراءه) . على أنه لابد أن نعترف أن الثورات البشرية والمعمارية نالت مكة ، وخاصة المنطقة الممتدة حول الحرم المكى بشكل خاص .

وعلى الرغم من أن المراجع القديمة تشير إلى أن مكة كانت ميدانًا للصدام بين المذاهب الإسلامية مرة ، ثم الصدام - فيما بعد - بين أصحاب المذهب الوهابى وبعض السنيين من المسلمين ، بل إن البعض يذكر أنه رأى حوانيت قائمة بالمسعى بين الصفا والمروة تبيع الخمر ، وإن كانت لا تعرضها للبيع إلاّ ليلاً (هيكل ١٣) ، فإن هذه

الاختلافات وتلك الانحرافات اختفت تمامًا اليوم من المدينة ومن الحرم نفسه ، وبدا مناخ من الصفاء الروحى والمادى يشوب الحرم . .

غير أن هذا الصفاء فى داخل الحرم خالفته مظاهر كثيرة حوله تسئ إليه . .

ففى حين بدا بعض الرحالة يعيب وجود بعض المطاعم ومحلات الصرافة . . وما إلى ذلك فى الحرم وحوله ، فإننى رأيت أشكالاً كثيرة من المحلات الفخمة ، بل وجدت حول الحرم - من جميع الأبواب - عددًا هائلاً من البائعين من شتى أنحاء العالم - وخاصة من جنوب شرق آسيا ، ممن يجلسون فى عرض الشارع بالعشرات ، ويبيعون كل ما لا يخطر على البال للحجاج والمتبركين بالحرم المكى ، بل إن الزائر للحرم يروعه أنه أمام الأبواب الرئيسة فى أمامية الحرم ، حيث باب الملك عبد العزيز وباب الملك فهد منطقة زاخرة بأعداد مهولة من (السوبر ماركت) بأنواع كثيرة لكل المشتروات ، وحركة تجارية قلما نجدها فى أكبر العواصم الكبرى . .

والغريب هنا ليس العدد الكبير من البائعين ، وإنما المحلات الفاخرة ، والأشياء الثمينة التى تباع لكل المستويات ، بل هناك أشكال من الكافتيريات (وليس المقاهى) ، كما كان يقال عنها قبل الثلاثينيات . . هذه المحلات الأفرنجية الجديدة تفزع الخارج من الحرم . .

أضف إلى هذا عددًا هائلاً من المطاعم ومحلات بيع أصناف الطعام بجميع درجاتها حتى إن (العولمة) بمظاهرها الفجة ، يمكن أن نجدها فى مواجهة الحرم بأهم محلاتها على الإطلاق (وهو ما نرجأه للتوقف عنده أكثر فى نهاية هذه الرحلة) . .

الأكثر من هذا جلبًا للحزن هذه العمارات والبنايات الكبيرة التى تحدق الآن بالحرم المكى ، لم تعد القضية قضية الحرف التقليدية التى عرفتها المنطقة ، ولا الهدايا التى تباع لضيوف الرحمن أو أشكال الخزف مما يلقى فى تيار الوازع الدينى ، وإنما أصبحت هذه البنايات الضخمة (التى تحاكى بنايات واشنطن وإسبانيا) تلفت النظر ، ليس لفخامتها فقط ، وإنما لضخامتها التى أخذت تعلو ، وتحلق حول المسجد ، حتى أنه فى يوم الانتهاء منها سوف تتحول المنطقة المحرمة (الحرم) إلى بقعة فى وسط هذه الأبنية الضخمة ، سواء أكانت فنادق ضخمة أم بنايات حكومية . .

وهذه البنايات لا نجدها أمام الحرم أو حوله فقط ، وإنما هى تمتد - مع طرف البصر - إلى الجبال المحيطة بالحرم ، فتقترب منها ، بل وتقام عليها ، وتزخر بأشكال الزخرفة بالقدر الذى تزخر فيه بأشكال من الوجاهة ، التى لا تليق بأن تكون فى هذا الموضع قط .

وقد لاحظ محمد حسين هيكل فى الثلاثينيات هذا النمط الذى يقترب من الغرب فى كثير من مظاهره حول الحرم المكى ، بل وفى مكة ، فقال على شكل تساؤلات دالة ، يقول : « على أيَّة صورة تكون صبوة شباب مكة إلى الحياة الحديثة فى هذه البيئة المحيطة بهم ؟ وما هذه الحياة الحديثة فى نظرهم ؟ أهى حياة الفكر الحر ؟ كما يصور الفكر الحر ؟ أهى حياة العلم والبحث العلمى كما نراها نحن فى مصر أو كما يراها أهل أوروبا ؟ أهى حياة الصناعة وتسلطها على قوى الطبيعة وإخضاعها إياها لإرادة الإنسان؟ أم إنها ليست هذا كله لأن هذا كله لا يتفق وحياة مكة وتفكير أهلها وقدسية ما فيها ، وإنما هى نوع آخر أدى إلى ما يسمونه أدب القوة وأكثر إيمانًا بأن الأمم الأخلاق الحقيقة إنك لا تستطيع أن تعرف . وشباب مكة أنفسهم لا يعرفون أيّاً من هذه الحياة الحديثة يأخذون ، وأيّة ناحية منها يدعون » .

والواقع أن ما نجده فى مكة وحول الحرم الآن بعد مضى قرابة سبعين عامًا لم تعد ترتبط بهذا المناخ الغربى أم لا ، وإنما أصبحت القضية التى تثيرها ، أن الخلط الشديد يفعل فعله فى كل شىء حول مكة ، وحول المناطق المقدسة فيها ، حتى إنه يستحيل كل شىء الآن إلى ألوان متباينة من شتى الألوان ، وأجناس مختلفة من شتى الأجناس ، وأشكال متنوعة من شتى الأشكال . .

إننا أمام الحرم المكى - على الأقل - أمام مهرجان من البيع والشراء وأجناس من البشر وأشياء متنافرة من البضائع وأناس تتعدد انتماءاتهم ، نائمون أو قاعدون ؛ مما يلفت النظر بشدة إلى العلاقة المتنافرة بين قدسية المكان وما يحدث فيه . .

وما يقال عن واجهة المبنى ، يمكن أن يقال فى بقية الأبواب الخلفية ، فقد تصادف ، ونحن نسعى بين الصفا والمروة أن أُصيبت زوجتى بحالة من الإرهاق ، كادت تسلمها إلى حالة من الإغماء الذى لا يحمد عقباه ، فتركتها عند أحد هذه

الأبواب الخلفية (باب بلال) ، وذهبت لشراء نوع ما من الأدوية ، فإذا بى أمام سوق آخر أضخم ، يهيمن عليه بائعون من شتى الأجناس ، خاصة ممن جاءوا من جنوب شرق آسيا .

وكادت دهشتى تتسلل إلى الحالة الروحية ، التى كنت أعيش فيها لفجاجة السوق واختلاف المشارب وتنافر الأصناف التى تعرض . . لولا أن عودتى كانت سريعة ، فأعود إلى الصفا والمروة الطريق الذى جئت له أو من أجله .

فى الحـــرم :

أعود إلى الحرم ، حين دخلنا إلى الحرم لطواف القدوم ، كان على أن يكون أول من يقع عليه نظرى الكعبة ، وأحسست بالرهبة نفسها التى أحس بها كلما جئت إلى هذا المكان ، وقفت صامتًا لفترة ، تيقظت منها على يد زوجتى ، وهى تدفع بى لإجراء الطواف ، سبعة أشواط كان على قطعها هذه المرة بصفاء روحى خالص .

على أن أكثر ما لفت نظرى هذه المرة ليس (عنف) السود وهمجيتهم الشديدة ، وإسراعهم العنيف ، وإنما أخذ يلفت نظرى بحق أن أكثر الطائفين كانوا من جنوب شرق آسيا .

كان من السهل أن نقرأ فصولاً أو تقارير كاملة عن أخلاق أهل مكة أو المدينة فى كتب الرحالة ، غير أننا الآن لا نستطيع بسهولة العثور على هؤلاء وسط المحيط الإسلامى الآتى من المنطقة الآسيوية . .

لقد حاولت أن أبحث عن أجناس أخرى ، وفى دخيلتى أن يكون العرب أكثر الأجناس ، انطلاقًا من أن الأمة العربية يجب أن تسود فى هذا الموقف ، خاصة وقد استرجعت فى دخلتى أن عبد الرحمن الكواكبى وهو يتحدث عن مؤتمر (أم القرى) ، كان أعضاء هذا المؤتمر اثنان وعشرين ممثلاً من شتى بلاد العالم (كلهم يحنون العربية)، رغم أن الشامىّ والقدسىّ والمصرىّ كان معهم الرومىّ والكردىّ والإنجليزىّ والصينىّ والقازانى . . إلخ .

كما تمنيت أن أجد الجنس العربى أكثر الأجناس الموجودة هنا ، وهو ما كان يعود للحس العربى المنتمى إليه ، غيار أن ما لفت نظرى إليه بشدة أنّ الحاضرين كانوا - فى أغلبهم - من أجناس متباينة ، وأن العرب فيهم جنس لا يكاد يحدد لضآلة تمثيله أو وجوده .

لقد لاحظت (من اللغة التى كانت تترامى إلىّ ، والإشارات التى تعلق على الصدور ، واللافتات والعوائد الظاهرة . . إلخ) أن الحاضرين أكثرهم من الماليزيين وأهل بنجلاديش وإيران وتركيا والصين . . إلى غيرهم كثيرين . .

حين عاودت النظر فى هذه المسألة ، أدركت أن عدد المسلمين فى العالم يفوق بمراحل كثيرة عدد العرب ، وهو ما يتفق مع ما لفت نظرى إليه مراد هوفمان أيضًا من نظام الحصص التى كانت تحدد على كل دولة ، فنظرًا لأنه من بين كل ١٠٠٠ مسلم يحصل واحد على تأشيرة حج ، فإنه يترتب على هذا النظام - وليس من قبيل الصدفة أو التقصير قط - أن الغالبية هنا تكون من المسلمين .

صحيح أنه يمكن تغيير الأعداد لا الأجناس حسب تجاوز كل حصة نظرًا لعدد القائمين فى السعودية - وأغلبهم من جنوب شرق آسيا - غير أن النسبة الأخيرة من عدد السكان المسلمين فى العالم ، هو الذى يحدد النسب الأخيرة السائدة الآن أمامى .

كان من الصعب أن أسمع - أثناء الطواف أو السعى - لدعاء عربى ، إنما كان فى الأغلب بلغة أُردية أو هندوسية أو تركية أو حتى عربية مشوبة بأصول فهلوية (إيرانية) . .

وهذا لم يؤثر كثيرًا فى انتمائى إلى الفكرة العربية ، وإنما زاد اقتناعى بأن قيام الوحدة العربية (وهو أمر صعب المنال الآن على المستوى السياسى) لن يمكن أن تقوم إلاّ بالتدرج فى الثقافة والاقتصاد ، ثم التدرج فى استخدام الوعى العربى - ثقافى أو اجتماعى - كخطوة من خطوات الإسراع إلى الوحدة الإسلامية بالشكل المحدد سلفًا . .

ومهما تكن الأشكال للتعامل مع الآخر (= الغرب) ، فإن الثابت أن تكون مقدمة التوحّد الإسلامية الوعى بالفكرة العربية والعمل لها ؛ لتكون خطوة حيوية للتوحّد العربى العام فى نسيج الوحدة الإسلامية . .

إنّنا ننظر إلى الوحدة العربية الآن أو نشير إليها فنحس بالغربة الشديدة لهذه الفكرة، التى كانت قد وجدت أبلغ مثال لها بين عامى ١٩٥٨ - ١٩٦١ فى مصر ، ثم بدأت فى التوارى قليلاً قليلاً حتى جاءت حرب الخليج الثانية ١٩٩٠ - ١٩٩١ ؛ لتقضى على الفكرة بالشكل الفيدرالى . .

ومع تطور العالم فى التسعينيات ، وتحدد دور الشركات المتعددة الجنسيات والبنك والصندوق الدولى . . إلخ ، فإن وزارات الخارجية الغربية وأجهزة مخابراتها عادت إلى ترويج أفكار غربية خالصة عرفناها فى ضوء الكتب المكتوبة - والمصدرة إلينا- من مثل (صراع الحضارات) و (نهاية التاريخ) . . وما إلى ذلك .

هذا معناه أن الفكرة العربية لابد أن تتم أولاً - على المستوى الثقافى - وألاّ تغادر المجال العربى ، قبل أنْ نعاود العمل لتطويرها عبر فكرة يسرع بها أصحابها إلى الطريق الإسلامى .

رأيت مظاهر كثيرة لضيعة العالم الإسلامىّ بل العربى أمام الكعبة بدءًا من الأرض صعودًا للأدوار العليا سنصل إليها فى نهاية هذه الخواطر ، ومن ثم ، كان علىّ أن أعيد تأكيد فكرتى الأساسية من ضرورة الوعى العربى ليطرز - فيما بعد - فى الوعى الإسلامىّ ، حين يدرك العالمُ الإسلامىُّ أنه لا خلاص للإنسان العربى غير الانتماء لجبهة واحدة إزاء هذا (الآخر) السياسىّ . .

وما أراه من ورع شديد وعبارة متناهية الفعل (وصف الرحَّالة الغربيين هذا بدقة شديدة وخاصة جوزيف بتس) يمكن أن يكون - إذا أحسنا فهم واقعنا والعمل له - يمكن أن يوظف فى إطار الوعى بالكتلة العربية التى هى مركز الكتلة الإسلامية ، وأمامنا وهذا دروس طويلة يجب استيعابها بسرعة فائقة قبل أن يكمل الغرب التهامنا جميعًا - مسلمين أو عربًا - . .

استيقظت فى نهاية السعى ، تذكرت أننى أُؤدى أول المناسك وأنا أرتدى ملابس الإحرام ، ومن ثم ، لا يجب أن أُغرق كثيراً فى هذا الجدل الداخلى الصاخب فى الداخل (فلا جدال فى الحج) كما قال رسول الله ﷺ .

حاولت الخروج من السعى بعد النهاية ، وحاولت أن أسبح فى الزِّحام الهائل حيث تنتظر العربات ، وحاولت أن أمضى لأكمل بقية الشعائر .

قيل لنا إن الطريق بين مكة والمزدلفة لا يزيد عن عشر كيلومترات ، فإذا بنا - ونحن فى العربة التى تمضى فى بطء شديد بين رتل من العربات - لا نكاد نتحرك من فرط الزحام والتوقف كل ثانية ، والملايين التى تسعى الآن للوصول قبل غيرها إلى المزدلفة لتلملم الحصاة (الجمرات) - لترجم الشيطان فى منى . .

كان علىَّ أن أعانى فى عشرة كيلو مترات ما يقارب فى الزمن من عشرين ساعة أو أقل قليلاً . .

هل هذا ممكن !!

إنهم ضيوف الرحمن هذا العام كما تحددهم الإحصاءات الرسمية بما لا يقل عن ثلاثة ملايين . .

ثلاثة ملايين فى طريق يمضى بين جبلين . .

ويمضى فى بطء شديد شديد شديد . .

فلنكف عن الجدل . .

* * *

٦ - البكاء .. فى الحرم المكى

بكاء عدد كبير فى الحرم المكى . . .

لفت نظرى أن عددًا كبيرًا من الوفود فى حالة بكاء شديدة فى الحرم المكى . .

حاولت أن أرقب هذه (الحالة) بهدوء . .

كانت حالة البكاء تنتاب من يدخل أى من الأبواب من يقترب من الحجر الأسود، وقرب مقام إبراهيم ، وأثناء السعى بين الصفا والمروة . . وحتى بعد الخروج من الحرم مع جر السيقان المتعبة والقلوب الحزينة . . كان الوافد يأتى مسرعًا ، ولا تلبث أن تهدأ خطواته ، ويقف فى جانب أو يمضى لقضاء أحد المناسك ثم يقف فجأة ليدخل فى نوبة بكاء شديدة .

فى الأدوار العليا تحديدًا وجدت هذا المشهد يتكرر : كان ينتهى هذا الشيخ من طوافه ليصعد ، ويتخذ موقفًا من أعلى ، شاخصًا إلى الكعبة المكرمة ، ويدخل فى حالة غيبوبة يهتز خلالها بهدوء ، فأدرك أنه دخل حالة أخرى من البكاء . يأخذ البكاء أشكالاً متعددة : الصوت الخفيض ثم الصوت الذى يعلو مع أصوات تعلو أكثر تدل على قسوة ما يعانيه ، ثم تزيد الدموع التى تنهمر بعنف . .

كانت الدموع تنداح فوق الخدود الصفراء أو الذقون السوداء . .

كان البعض يحمل مناديل بالية يضعها فوق العيون . .

والبعض الآخر لا يحس - لمجرد الحس - بأنه يبكى فلا تبدر عنه أية حركة . .

كانت النساء أكثر الأصوات علوًا وأكثرها كتمًا فى الأردية المميزة لنساء جنوب شرق آسيا خاصة . .

كانت الدموع تمتد بين الأجناس من شتى بقاع الأرض : آسيا ، أوروبا ، أمريكا ، أفريقيا . . بين أبناء فلسطين (تسمى الآن إسرائيل) الذين جاءوا هذا العالم بالآلاف ، وأبناء بورما (تسمى الآن ميانمار) وأبناء الشيشان وطاجستان والباكستان والصين والهند وسيرلانكا وكشمير والأفغانستان وماليزيا . . إلخ (وأغلبها تسمى بأسماء أخرى الآن أو تنتمى لأقاليم صغيرة أو اقتطعت من الدولة الأم) .

كان يسهل علىَّ أن أكتشف أن هؤلاء يأتون من أنحاء العالم النامى المحزون ، المجزأ ، المذبوح ؛ فعمليات القتل تسمى فى كوسوفا (بالإبادة الجماعية) ، وتسمى فى الجزائر (بالجزأرة) ، وتسمى فى أفغانستان (بالذبح وجع الأنوف) وتسمى فى . . إلخ .

ثم اكتشفت أن لدى - أنا أيضًا - من الأسباب ما يجعلنى أغيب فى بكاء طويل . .

وتنفرط حبات الألم . . لماذا . . ؟ لماذا ؟

وتنفرط ظواهر الإذلال للسيطرة بشكل مخيف . .

« المباحث الفيدرالية » :

إن موسم الحج هذه الأعوام غير أى مواسم أخرى ، لقد زيد على كل ما يعانى منه المسلمون فى كل أنحاء العالم هذه المراقبة التى كان يحس بها كل حاج ، وفى عديد من المطارات والموانئ العربية تحت ضغط أجهزة واشنطن .

لم تكن هى العيون اللامعة التى كانت تتصدر الحوائط العالية فى المطارات السعودية خشية من الاضطراب أو إحداث الفتنة فى داخل البلاد ، وإنما لأن قوى أمريكية طلبت ذلك ؛ فلبى أمرها على الفور ؛ بل وتوافرت لها إمكانات كثيرة لمراقبة هذا الموسم بحجج كثيرة .

عرفنا أن ذلك تم بزعم قوى المخابرات المركزية الأمريكية أن عددًا من القادة غير الظاهرين للإرهاب ، وأعوانًا لهم تواعدوا على لقاء فى مواقع الحج ومناسكه إلى آخر ما عرفناه خاصة ، بعد أحداث سبتمبر ، وفى موسم الحج التالى لهذه العاصفة . .

فى التوقيت نفسه الذى أعلن فيه عبر وكالات الأنباء ، وتسرب فى بعض الصحف (على سبيل المثال ، العربى ٦/ ٢/ ٢٠٠٢) أن عناصر من المخابرات الأمريكية « الإف . بى . آى » « المباحث الفيدرالية » تقوم الآن بالإشراف على الإجراءات الأمنية بمطارات مصر ، ضمن عدة إجراءات احترازية أمريكية ؛ تحسبًا لعقد اجتماعات بين قيادات تنظيم القاعدة أثناء موسم الحج .

وأوضح مصدر مطلع أن أشد هذه الإجراءات سيكون بمطارات القاهرة والإسكندرية والأقصر ، التى تعتبر أهم نقاط « الترانزيت » للحجاج والمعتمرين القادمين من أوروبا ، خاصة دول ألمانيا وهولندا وإيطاليا والدانيمرك من أمريكا وكندا . . ودول أمريكا اللاتينية التى تعتقد أجهزة الأمن الغربية أن بها عشرات الخلايا النائمة المنتمية للقاعدة ، والتى تزعم واشنطن أنها ستستغل موسم الحج للاجتماع ، وترتيب عمليات هجومية جديدة بعد الضربات الموجعة التى قتلت أو بعثرت رؤوس التنظيم بأفغانستان . .

وتشمل الإجراءات قيام عناصر أمنية أمريكية بمراقبة الركاب الترانزيت ، قبل وأثناء موسم الحج ، عبر كاميرات الفيديو تتصل بمكتب « الإف . بى . آى » بالسفارة الأمريكية بالقاهرة ، والتى تضاعف عدد العاملين فيه بعد هجمات سبتمبر ، وينتظر أن تنضم إليهم عناصر أخرى خلال أيام الحج القادمة لمتابعة عشرات آلاف من الحجاج ، وإرسال الأفلام والمعلومات إلى مركز رئيسه بواشنطن لمراجعتها وتحليلها .

كما تشمل الإجراءات موافاة واشنطن بكشوف كاملة لحجاج ومعتمرى الترانزيت ؛ لتضاف إلى التزام عربى سابق بموافاة واشنطن بأسماء وصور المسافرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية ؛ وأيضًا تسلم كشوف بأسماء المسافرين بحرًا هكذا قيل ؛ والقول معناه أمر فى صيغة طلب لبى بسرعة فائقة . .

حدثت نفسى ، لقد وصلت عيون واشنطن الآن ؛ حتى ؛ إلى داخل الحرم المكى . .

تدخلت دواعى الأمن وتوابع (عسكرة العولمة) ومراحلها التالية داخل الحرم . .

هل هذا معقول . . ؟

الكوكا - صهيونية :

هذه هى شركة كوكاكولا تزعم أن علاقاتها بإسرائيل غير حقيقية ، وراحت تصدر بيانًا فى بداية العام الماضى - تتواصل معه - حتى بداية هذا العام - تنفى الاتهام ضدها ؛ فقد بدا أن الحملة الإعلانية التى تقوم بها الشركة عبر حملة إعلانية سابقة لزيادة منتجاتها ، وترويج بضاعتها التى وجدتها منذ الوصول إلى مطار جدة الدولى ، مرورًا بأحياء مكة القديمة - صعودًا إلى كثير من مناطق المملكة الأخرى .

ومازالت الشركة توالى حملاتها من (دبى) إلى المملكة إلى أنحاء العالم الإسلامى كله ، لدرء شبهة الوقوف إلى جانب القوى اليهودية (وهى حقيقة وليست شبهة . .) .

(العسكرة) .. التالية :

بدأت مرحلة تالية من (عسكرة الحرب) بعد حملة أفغانستان ، تمثلت فى عديد من الإجراءات ، منها :

(أ) تجميد أرصدة مؤسسات إسلامية كثيرة بتهمة الإرهاب .

(ب) تجميد عديد من (الجمعيات الخيرية) الإسلامية فى عديد من بلدان العالم العربى .

(جـ) إعادة النظر فى برامج التعليم . . إلخ .

الدجاج والخراف :

على أن الذى يبكى أكثر ليس هو الخطر الخارجى فقط ، وإنما هو الخطر الداخلى ، أيضًا الدجاج والخراف : أثناء الوقوف طويلاً فى الحرم المكى قبل الصعود إلى عرفات أو بعد العودة منه ، كانت تتناهى إلى أسماعنا قضايا غريبة ، أو هى قضايا وهمية فى عصر ، تتربص بنا فيه أغلب أقطار الشمال . .

يفتى فى تركيا بأن المسلمين الأتراك يمكن أن يستبدلوا بالخراف الدجاج لذبحه ؟ لماذا ؟ يضيف البيان بسبب الأزمة الاقتصادية والمالية ، بل يتم هذا خلال إفتاء معلن فى

أنقرة بأن الدجاج يقوم بالدور نفسه الذى أدته الخراف على مدى الأعوام الماضية ، نقرأ بالحرف الواحد هنا : تستطيع أن تمنح الفقراء دجاجة ، أو تستطيع أن تمنح أحد الفقراء ١٠ ملايين ليرة عوضًا عن لحم الخراف .

وبينما يغضب الإفتاء السعودى ، تتبنى جبهة علماء الأزهر فى مصر فتؤيد الفتوى التركية ، ويعارض بعض العلماء بشكل غير رسمى ويؤيد البعض الآخر : يحيا الدجاج بدلاً من الخراف ، بل نريد (ولو) درهمًا من الخراف بدلاً من الدجاج . . وتتعالى الأصوات هنا وهناك .

البعض يؤيد والبعض يرفض . .

- تشتعل الصحف فى عديد من العواصم ، ويعم اللغط : الدجاجة أم الخروف . . وينشغل المسلمون فى أيام الحج والعمرة بمثل هذا الجدل البيزنطى أيهما أولاً : الدجاجة أم الفرخة ؟

إننا الآن أمام الدجاجة أم الخروف . . !!

إنها صورة الهدى فى الزيارة بالصورة الجديدة . . صورة نراها لأول مرة .

القلعة والأوثان :

تعلن المملكة السعودية أن (قلعة جياد دمرت قبل حوالى أسبوع والجرافات مازالت تعمل فى الموقع) ، وعلى الفور تغضب تركيا ، تقدم احتجاجًا لمنظمة الأمم المتحدة للعلوم والتربية والثقافة (يونسكو) على تدمير القلعة . الصحف التركية تشتعل أكثر ، نقرأ من يؤكد أن هذا القرار يمكن مقارنته بحركة طالبان بتدمير التماثيل البوذية فى أفغانستان .

تعلن (اليونسكو) أن الأمر لا يهمها ؛ فالقلعة ليست مدرجة ضمن لائحتها للتراث العالمى ، وتستدرك ، لكنها لا تستبعد ذلك بشرط أن يكون بعد إجراء تحقيقات فى المكان .

تعود الكرة إلى المملكة ؛ فتعلن رفضها لاحتجاجات تركيا على إزالة قلعة جياد فى مكة المكرمة . . حين تغضب تركيا أكثر . . . تعود المملكة لتعلن :

- (إن القلعة ليست مقدسة)

ثم إنها شأن يخص سيادة المملكة . .

ثم إنها تخص العرب أو المسلمين هنا . .

ونعرف أن الصحف السعودية والتركية ، وتشاركهما صحف عربية أخرى كثيرة ، تسهم فى المعركة العاصفة ؛ من أجل صعوبة الإجابة عن السؤال الأزلى :

تُدَمَّرُ القلعة أم لا تُدمَّر ؟

التدمير أولاً أم التعاون والاستجابة للطرف الآخر . .

نحسب المتسارعين إلى هدم القلعة أو البقاء عليها فى عداد التخبط حين تشبه القلعة بتمثال بوذا ؛ تشتعل البلاد العربية ، ومعها الإسلامية هذه المرة أيضًا حول سؤال مصيرى متصل بالموت أو الحياة . . فى شكال سؤال :

- القلعة أو الأوثان ؟!

يسود الصمت ، انظر داخل الحرم المكى . .

أعاود النظر إلى خريطة العالم الإسلامى . . ألمح عددًا كبيرًا من الزائرين يبكون دون صوت ، سريان الدموع فقط لها أصوات عالية أو ليس لها أصوات عالية .

تنقل وكالات الأنباء أنه كثير من الحجيج أجهش فى البكاء فى أكثر من موضع فى الحرم المكى ؛ خاصة المكان الذى ألقى فيه الرسول ﷺ خطبة الوداع .

وصلت دموعى أنا أيضًا ، اكتشفت أننى كل هذا الوقت كنت أقف أمام الكعبة . . أنظر إليها ، أصمت ويخيل إلىَّ أننى أصمت أيضًا . .

اكتشفت أننى أسمع صوت البكاء يعلو ويعلو ويعلو . . .

* * *

٧ - الرحلة إلى جسر الجمرات

(ألا يمكننا القول أن الإحرام يشير إلى الموت ؟
وأن الطواف يسلم المرء إلى الله ؟
والسعى .. أليس السعى إرهاقًا وتعبًا ؟
أليست زمزم هى الحياة والكينونة ؟
ويوم عرفة .. ألا يجعلنا نتوقع يوم القيامة ؟
والمزدلفة .. أليست هى الظلام الذى يسبق اليوم الجديد ؟
ومنى .. ألا تمثل الوفاء من خلال نحر الأضحية ؟
وخلع الملبس الإحرام بمنى.. ألا يعنى حياة جديدة؟
ورمى الجمرات .. ألا يَرمز لكفاح مدى الحياة ضد كل ما هو شر ؟
ولكن الله هو محور الحياة ..) .

(هوفمان - الرحلة إلى الله)

وبدأت الرحلة إلى جسر الجمرات . .

فى البداية ، اتجهنا للتجمع .

كان هذا مساء السبت الموافق الثامن من ذى الحجة من عام ١٢٤١ (٣ مارس ٢٠٠١) . .

كان التجمع قد بدأت كثافته فى المساء ، ولم تتحرك العربات قبل منتصف الليل .

اتجهنا إلى مكة لنبدأ مناسكنا وقد ابتدأ يوم ٤ من ذى الحجة ، وكان يوم سبت ، وبمجرد وصولنا هبطنا جميعًا ، وقبل أن نبدأ هذه المناسك فى مكة ، اتفقنا على مكان محدد نعود إليه بعد التفرق . .

ذهبنا ونحن نقتفى أثر الرسول - ﷺ - فهبطنا إلى الكعبة ، وقمنا بالطواف ونحن ندعو ونحن نكرر كثيراً عبارة « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

ثم قرأت بعد الفاتحة (قل يا أيها الكافرون) و (قل هو الله أحد) وبعد الطواف ، ثم قرب مقام إبراهيم عليه السلام صلينا ركعتين ، ولم نلبث أن صعدنا إلى الصفا والمروة ، ونحن نتلو آيات من القرآن الكريم وأكثرنا من الدعاء والاستغفار ، وكنا فى حالة روحانية شديدة ، ولاحظت أن زوجتى كانت أكثر منى وجداً ودعاءً ، ولكن كثيراً ما كان صوتها يعلو بشدة ولوعة شديدين ، وكنت أهدأ من روعها من آن لآخر .

غادرنا مكة فى زحام شديد ، وكأنه يوم الهول .

كانت الصحف تردد أن أكثر من ثلاثة ملايين يؤدون الفريضة هذا العام ، ومضى وقت طويل من الليل ، قبل أن نعود إلى العربات لمواصلة الرحلة . وطيلة الطريق كان جموع الحجيج يلبون . . لبيك اللهم لبيك . . حتى وصلنا إلى عرفات .

وفى عرفات وصلنا مع طلوع الفجر ، فصلينا فى الخيام المخصصة لنا ؛ وحاولنا أخذ وقت قصير من الراحة ، وما لبثنا أن استغرقنا فى الصلاة والدعاء وقراءة القرآن ، وصلينا الظهر والعصر قصراً ، وأخذنا نلبى من جديد . . لبيك اللهم لبيك . وتصادف أن هطلت الأمطار فى وقت بلغت فيه درجة الحرارة ٤٢ درجة ، وكانت الشمس مع ذلك تشير إلى أن وقت الظهر وقت اشتداد الحرارة إلى أقصاها .

كانت الظاهرة اللافتة لنا : أن ترتفع درجة الحرارة وتهطل الأمطار . .

وفى هذا الوقت بدأت أمواج الحجاج تتدفق إلى خارج الخيام للدعاء مع سقوط الأمطار الشديدة ، فقد كانت هذه الظاهرة نذير تفاؤل وفرح للكثيرين .

ومع توالى هطول الأمطار وخروج الحجاج ، كان كثير منهم يتجهون إلى جبل عرفات ، فيدعون بالمغفرة . .

ولاحظنا أن هناك عدداً كبيراً من العربات ، التى تنتمى إلى الجهات الأميرية تحمل الكثير من المثلجات والمياه والأطعمة .

وكان ذلك هو يوم التروية كما يطلقون عليه .

ويوم التروية نجد له تعريفات كثيرة فى كتب التراث ، فقد سمى بذلك لأن الحجاج كانوا يترون من الماء فيه ما يعدونه ليوم عرفة ، ويشير صاحب (المغنى) أنه سمى بذلك لأن إبراهيم عليه السلام رأى ليلاً فى المنام ذبح ابنه ، فأصبح يروى فى نفسه : أهو حلم أو من الله تعالى ؟

فسمى يوم التروية ، فلما كانت ليلة عرفة ، رأى ذلك أيضًا فعرف أنه من الله تعالى ، فسمى يوم عرفة .

هكذا قيل لنا ممن حاولنا الفهم منه . .

وأذكر أننى ما إن وصلت إلى عرفات حتى تذكرت أن رسول الله - ﷺ - وهو ينادى فى الناس - فحمد الله وأثنى عليه - وقال خطبته المشهورة . .

خطبة الوداع :

ولأهمية خطبة الرسول هنا ، وما تحتويه من قيم ومعان فى غاية الأهمية ، خاصة أنه أطلق عليها خطبة الوداع ، فقد آثرنا إثباتها هنا للتأمل والتروح ، قبل أن نستكمل الرحلة الشاقة بكل المقاييس .

خطب الرسول ، فقال :

« أيها الناس اسمعوا قولى ، فإنى لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدًا . أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم .. وقد بلغت .. فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلي من ائتمنه عليها ، وإن كان ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون .. قضي الله أنه لا ربا وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع . وأن أول دمائكم أضع دم ابن أبى ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . أما بعد أيها الناس : فإن الشيطان يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدًا ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به .. مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

أيها الناس : إن النسئ زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عامًا ، ويحرمونه عامًا ليواطئوا عدة ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله .

وإن الزمان استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند ا اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات (ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم) ورجب مفرد الذى بين جمادى وشعبان .

أما بعد ، أيها الناس فإن لكم علي نسائكم حقًا ، ولهن عليكم حقًا ، لكم عليهن ألا يوطئن فراشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربًا غير مبرح .. فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله .

اعقلوا أيها الناس قولى ، فإنى قد بلغت .. وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بيناً كتاب الله وسنة رسوله .

أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه .. إن كل مسلم أخ للمسلم ، وإن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم . اللهم هل بلغت » .

هل لاحظنا كل هذه القيم الدينية المتينة فى خطبة الرسول - ﷺ - .

وفى هذا اليوم الذى نقلتنا فيه العربات - بعد الزوال - فى طريقنا إلى المزدلفة .

وأكثر ما يلفت النظر فى الطريق ، أن هذه المسافة الصغيرة إلى المزدلفة وهى لا تتعدى فى الأحوال العادية ساعة ونصف ، قطعناها فى أكثر من أربع عشرة ساعة فى عربة قديمة أكثرها من النساء .

أذكر من الأشياء التى عانينا منها فى هذا الطريق الشاق نقص المياه ، الذى أثر كثيراً على بعض الأطفال الذين صحبونا فى الطريق ، وكثيراً ما توقفنا لتوقف الطريق تمامًا ، ولم يكن فى اليمين أو اليسار غير الجبال التى تحيط بنا ، وكدنا لا نرى شيئًا قط

فى هذا الظلام الدامس ، اللهم إلا فى ضوء كشافات العربات ، الذى يظهر ويختفى كل شىء ، وقد تكرر هذا لساعات طوال .

هبطنا فى الطريق بالمزدلفة لنصلى المغرب والعشاء جمع تأخير قصرًا ، وقمنا فى الوقت نفسه بجمع الحصوات (٤٩ حصاة) .

وإن أنس فلا أنسى هذا المشهد الذى أشرت إليه ؛ إذ كانت العربة لا تكاد تمضى عدة أمتار حتى تتوقف ، وتمضى عدة أمتار لتتمهل ، ثم تتوقف ، كان الملايين من البشر يمضون فى طريق واحد وقصد واحد ، وكان الزحام المهول والعربات الضخمة من الناحيتين والظلام الدامس من كل ناحية ، يحول بين العربة السير لفترة صغيرة من الزمن . .

كان الطريق طويلاً ، مظلمًا كثيفًا بالعربات ، والحاصل أن مشقة التمهل والتوقف من آن لآخر ، أخرجت أكثر المسافرين عن صوابهم ، كما أسلفنا . .

وقد أسلم هذه الرحلة زوجتى إلى ما يشبه الإغماء ، وقد كان الضغط قد هبط إلى أدنى درجة لديها ، فلم تستطع المقاومة ، وكادت تطرح أرضًا حتى تداركتها رحمة الله وقمنا بمساعدتها ، فطرحت على المقعد الأمامى على الظهر ، مع رفع الرأس إلى أعلى ليصعد الدم إلى أعلى الرأس ، وقد كان من حسن الحظ أن كان معنا فى العربة طبيب ، فأشرف على الحالة بشكل سريع . .

كانت الحالة من الصعوبة بحيث توازى إيماننا العالى ، مع رعبنا الشديد من الخوف ؛ لئلا تودى هذه الحالة بها إلى ما لا تحمد عقباه .

لنتمهل أكثر - إذًا - عند المزدلفة . .

انتظرنا حتى إذا ما عبرنا المزدلفة ، قمنا بصلاة المغرب والعشاء (جمعًا وقصرًا بأذان واحد وإقامتين) ، ومكثنا حتى صلينا الفجر .

وكنت قد قمت بسرعة بجمع الحصوات من أمام هذا الجبل المرتفع ، وفى جنح الظلام قبل أن تشرق الشمس ، وكنت أستعين على العثور على هذه الحصوات بأنوار جرارات ضخمة ، كانت تعمل فى هذه الجبال الشاهقة وعربات ضخمة ، لم أر مثلها من قبل . .

حديث الشيطان :

أذكر أن السرعة التى فعلنا فيها كل ذلك ، دفعت بى إلى الهرولة بين جمع الحصوات والسرعة فى الوضوء من عربة تحت الخطى بعيداً عنا ، وكان علىَّ أن أتذكر جيداً أن الحصوات لابد أن تلقى على الشيطان ، وأنا أحرص - كما قيل لنا - أن تكون الكعبة على اليسار ، ومنى على اليمين .

حدثت نفسى فى صمت : أى شيطان هذا ؟

وأين هو هذا الشيطان ؟ استعذت بالله ، وأنا أخفى وجهى عن هذا السؤال الحائر فى عصر تحاصرنا شياطين كثيرة :

- هل هو شيطان الكتب الدينية التى عرفناها منذ ولدنا ؟

- هل هو شيطان الشللية والفساد الذى أصبح يسيطر على مساحات شاسعة من عقول عرب اليوم ؟

- أم هو إلى جانب شيطان العقيدة وشيطان الذات هو شيطان الآخر ؟

وبشكل آخر ، هل هو شيطان العم سام الذى يحاصرنا من كل مكان اليوم ؟

- أى شيطان يجب أن نرجمه اليوم ؟

ظللت أستعرض عدداً كبيراً من الشياطين التى نقوم برجمها الآن - بالرمز - لكننى ، بأمانة شديدة اكتشفت أننى أرجم شيطان الداخل ؟ شيطان الذات ؟ الشيطان الذى يعمل فينا - ومنا - الشيطان الذى يجعلنا نظلم أنفسنا ومن هنا ، فإنه يعمل للقوى الخارجية التى تتربص بنا ، وتكاد تهيمن الآن على إرادتنا ومقدراتنا ، ولكنه يظل دائماً هو الظالم بيننا وبنا . .

فلنرجئ حديث الشيطان فيما بعد . . .

* * *

. . وبعد ، نواصل الآن رحلتنا إلى البيت العتيق . .

ومهما يكن ، تذكرت هنا ، أمام هذه الجبال الشاهقة رواية ، ترددها الكثير من كتب الفقه دون سند قوى ، بل دون إجماع عليها ، ففى رواية نجدها فى عديد من كتب السلف تروى قصة نؤثر أن نثبتها هنا لأهميتها .

وتقول القصة التى تذكرها كتب التراث أن الرسول دعا لأمته عشية عرفة بالمغفرة ، فأجيب إنى قد غفرت لهم ، ما خلا المظالم ، فإنى آخذ المظلوم منه .

قال : أى رب ، إن شئت أعطيت المظلوم من الجنة وغفرت للظالم ، فلم يجب عشيته ، فلما أصبح بالمزدلفة أعاد الدعاء ، فأجيب إلى ما سأل ، فضحك رسول الله ، أو قال : تبسم .

فقال أبو بكر و عمر : بأبى أنت وأمى ، إن هذه لساعة ، ما كنت تضحك فيها ، فما الذى أضحكك ، أضحك الله سنك ؟

قال : « **إن عدو الله إبليس لما علم أن الله عز وجل قد استجاب دعائى وغفر لأمتى ، أخذ التراب وأخذ يحثوه على رأسه ، ويدعو بالويل والثبور فأضحكنى ما رأيت من جزعه**» .

تنتهى هنا القصة التى تنسب للرسول ، ولا ينتهى ما تثيره من حيرة . . بلا شك لا نرى أن الرسول قد جاء بذلك ، فهو يتناقض تمامًا مع عدل العقيدة ، ومبادئ الدين الحنيف ؛ فضلاً عن أننى حين شغلت طويلاً بمثل هذا الكلام ، الذى جاء فى كتاب المساك مرة . . وجدت معارضًا له لأكثر من مرة (انظر على سبيل المثال : مصباح الزجاجة للبوصيرى فى زوائد ابن ماجة : أحمد بن أبى بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان بن عمر الكنانى شهاب الدين البوصيرى - ٧٦٢ ، ٨٤٠هـ - دار الكتب العربية ، بيوت - لبنان) .

وأعتذر عن إيراد كل هذا المصدر الطويل ، فالبوصيرى أنكره ووصفه بأنه « إسناد ضعيف » ، وقد رواه الإمام مالك بسند صحيح على هذا النحو ، فقد قال الرسول - ﷺ - : « **ما رؤى الشيطان يومًا هو أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما يرى فيه من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام** » (عن كتاب الترغيب والترهيب للإمام المنذرى) .

ولا نريد أن ندلل على ذلك بذكر كثير من الروايات ؛ فالخطاب العام لهذه الحكاية غير منطقى ، فضلاً عن أنه يتعارض مع مبادئ الدين الحنيف ، الذى به كثير من الآيات التى تؤكد مصير الظالم ونهاية المستبد .

غير أن أكثر ما يلاحظ هنا كثرة التأويلات لعديد من مناسك الحج ، وهى تأويلات تؤكد الخلافات الشاسعة بين عدد هائل من المفسرين والمجتهدين فى الدين الحنيف ، بل نعجب أن الخلافات تصل للأئمة الكبار . . للأئمة الأربعة ، كما نرى من الكشف المرفق هنا . .

وفى صباح اليوم التالى وصلنا إلى منى . .

فى منى :

على أية حال . . فقد لفت نظرى المنطقة الجبلية . .

ففى « منى » وجدت منطقة تحيطها الجبال من كل ناحية ، لا يكاد يخلو مكان فيها من الخيام ، وتقدر الخيام فيها بأربعين ألفًا ، وهى مكيفة ومقاومة للحريق . .

المعروف أن المبيت فى منى ضرورة أقرها الدين ، حيث تسمى هذه الفترة بمنى أيام التشريق ، تيمنًا بقول الرسول ﷺ : « **أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله** » . . أى عشنا فترة عادية من تكرار العبادة وكثرة التكبير والتهليل بعد الصلاة خاصة . .

ولنعد الخطو أكثر إلى منى . .

« المفترشون » و ..

وصلنا إلى منى أخيرًا . . يبدو علينا الإرهاق الشديد ، الذى قطعناه بين مكة والمزدلفة . . كان الطريق رغم ضراوة السيارات أقل كثافة وأكثر اتساعًا . .

فى المساء كنا ندلف إلى جبال منى . .

وهبطنا - مرة أخرى - إلى مخيمات جديدة وسجاجيد جديدة وأرض قاسية متعرجة ، رغم الجهود الكبرى التى تبذل فى مناطق أخرى ، ولحجاج آخرين أكثر راحةً ورحابة .

لفت نظرى أن المكان الذى كنا نقيم فيه كان مكانًا كله جفاف ، الأرض حصباء ، والجبال شديدة السواد شديدة الارتفاع .

وفى أول أيام التشريق ، كان علينا أن نتأهب لرمى الجمرة الأولى (الصغرى) ، وما لاحظته أيضًا فى هذا الطريق الطويل الممتد ، حيث سادت فيه ظاهرة (المفترشين) ،

والمفترشون هم قوم من الفقراء والمعوزين ، تركوا مساكنهم الفقيرة إلى الأرض ، وفضلوا العيش فيها ، وزادت أعدادهم حتى وصلت فى السنوات الأخيرة إلى نسبة حددتها السلطات السعودية بما يوازى ٢١ فى المائة من إجمالى عدد الواقفين فى عرفات فقط . .

كان جماعة من البشر يبيتون فى فنادق عادية ، والأغلبية تعيش على الأرض حول المسجد الحرام ، وهو منظر يمتد من مكة . فى حين أن مناطق الثراء كانت تصل إلى درجة مفزعة ؛ خاصة سلسلة الفنادق الضخمة . . إلى درجة أفزعتنى كثيراً ، فقد قدر لى أن أزور شقيق زوجتى هناك . . فوصل بى العجب إلى مداه ، فالحج (الخمس نجوم) التى كنا نسمع عنه يقل ويتضاءل أمام ما أرى . . .

لم أستطع أن أحدد رأيًا فيما أرى وقتها ، ولكننى أرجأت التأمل فيه فيما بعد . .

عدت إلى (الحالة) الروحية التى أعيش فيها . .

جسر الجمرات :

وبدأنا الاستعداد لرمى الجمرات ، وقيل لنا إنه يجب أن يتم ذلك فى وقت معين ؛ أى لا يجوز الرمى قبل الزوال ، مقتفين بما فعل الرسول .

كنت - حسب المتبع - أتوجه إلى جسر الجمرات أو إلى الجمار - كما كان يطلق عليه - بعد وقت الزوال و/ أو إلى قضاء المناسك المعروفة هنا . . كنت أبدًا بالجمرة الصغرى التى تلى مسجد الخيف ، وأرمى بسبع حصيات واحدة بعد واحدة ، وكنت كل مرة أقول : الله أكبر ، وأستقبل القبلة ، وأرفع يدى بالدعاء بقدر قراءة سورة البقرة؛ أى الدعاء لفترة طويلة . .

كنت أرمى - أيضًا - الجمرة الوسطى . . . أيضًا وأستقبل القبلة ، رافعًا يدىَّ بالدعاء قريبًا من المنطقة التى سبق أن وقفت فيها . .

ثم كنت أرمى - كذلك - جمرة العقبة بسبع حصيات ، فأجعل البيت عن يسارى، ومنى عن يمينى . .

فعلت ذلك أكثر من يوم بشكل متوال . .

كنت أخرج كل يوم وأسير طويلاً لرمى الجمرات ، رغم أن المسافة حيث كنا نقيم وجسر الجمرات كانت بعيدة ، كنت كل يوم أسير ذهابًا وإيابًا لأنظر وأتفحص فى الذهاب والمجىء . . كان طريق المشاه من جسر الجمرات إلى آخره يزخر بصنوف من البشر ، يمكن أن ينتموا إلى كل أجناس الأرض ، ليس من يقومون بفريضة الحج وحسب ، وإنما - وهو أكثر لفتًا للنظر - تلك الكثافة التى لم أرها فى يوم ما من البائعين على ناحيتى الطريق .

بائعون من كل أجناس الأرض - ربما يميز الغالبية فيهم من الأفارقة السود وبشر من جنوب شرق آسيا ، بيد أننا لا نستطيع أن ننسى جنسًا ما من أجناس الأرض إلا ونجده هنا ، فى الوقت نفسه كانوا يفترشون الأرض فى الغالب ليبيعوا كل شىء . .

كل ما يخطر على البال من شتى أنواع السلع : البوصلة والسجاد والمسبح والدوارق المزركشة والتمور والمكاوى والمصاحف والبطاريات ، وعديد من الأحجار الكريمة واللوحات القرآنية والأثواب البيضاء ، وعشرات من أنواع التحف . . إلى غير ذلك .

وكنا نلاحظ أن التحف قليلة الثمن كانت توجد بين أيدى الجنسيات الآسيوية من جنوب شرق آسيا ، أما الآلات التى كانت ترتفع قيمتها كالأجهزة المكيفة وآلات التصوير وماكينات الحلاقة الحديثة . . إلخ ، كانت توجد بين أيدى أخصائيين أكثر فهمًا كهؤلاء الروسيين أو الروسيات من المسلمين النجباء ، الذين جاءوا هنا - ضمن مناطق أخرى - عقب سقوط الاتحاد السوفيتى أو مع بعض الحجاج الروس ، الذين جاءوا ومعهم أجهزة كالراديو وماكينات الحلاقة والمناظير . . إلخ ، أيضًا شارك عدد من الحجاج الإيرانيين ببضائعهم المميزة كالفستق الإيرانى والمن والسلوى . . إلى غير ذلك .

والغريب أننا لم نجد شيئًا من البضائع العربية أو المصرية بوجه خاص .

صحيح أن هذا الطريق كان يحيط به من الجانبين وسائل كثيرة من حنفيات المياه المعدة خصيصًا لمقاومة هذه الدرجة العالية من الحرارة (كانت عربات المبرة الحكومية

توزع على السائرين فى مناطق المشاعر المقدسة وبعض النقاط المياه) ، وبعض المظلات هنا وهناك ، غير أن السمة العامة كانت هذه الكثافة الرهيبة من الناس والبضائع .

هذه الكثافة العالية فى البشر العدد والحركة والتدافع والعنف بشكل يلفت النظر حقاً .

الجمرات والموبايل :

صحيح أننا كنا فى الأراضى المقدسة ، وهذا المناخ المشبع بالعقيدة من ذهاب ومجىء البشر ، الذين يسعون أو يعودون من جسر الجمرات .

غير أن الأمر كان أحيانًا يخرج عن هذه الروح الدينية الخالصة .

فكثيراً ما كان المرء يلاحظ كثيراً من ألوان السلوك الخاطئة ، سواء من بين الحجاج فى الطواف والسعى ثم هنا فى رمى الجمرات ، بل إن الجهات المسئولة سجلت فى العام الأخير ٢٠٠٢ أن جسر الجمرات لم يكن يتلقى الحصى فقط - كما هو معروف فى العقيدة الدينية - بل لاحظ عمال النظافة فى كل مرة يقومون بالتنظيف . . إن الذين جاءوا ليلقوا بالجمرات لم يكتفوا بالحصى فقط ، وإنما ألقوا بأجهزة (الموبايل) ، وبما يرتديه الحاج فى ساقيه ، وبكثير من الأدوات التى ليس لها أية علاقة بالحصى فقط ، وهذه ظاهرة كانت تشيع بين الحجاج ، وتشيع شبيهًا لها - مع اختلاف الأداة - فى سلوك البائعين المنتشرين بكثافة هنا .

رغم الرقابة ، فإن الأمر لم يكن ليخلو من أن يقوم أصحاب المتاجر أو المتناثرين فى الطرق باستغلال مراقبى وزارة التجارة فيزيدوا الأسعار . .

وزيادة الأسعار لم تكن تظهر فقط فى أنواع البضائع الكثيرة وحسب ، وإنما كانت تمتد إلى المياه والمشروبات الغازية . .

كان المنظر لا يوحى بالعقيدة قط أكثر مما يوحى بآلاف المسلمين المعدمين من شتى أنحاء العالم الإسلامى ، الذين جاءوا إلى هنا بطريق شرعى أو غير شرعى بحثًا عن الرزق .

أيضًا ، كان من السهل أن نرصد ظاهرة أخرى لافتة ، وهى تتمثل فى الأعداد الكبيرة للمتسولين فى هذا الموسم ، وهى أعداد تنتمى أيضًا إلى كل الجنسيات ، كما يغلب على أصحابها عدد كبير من المعوقين ، ممن يلقون فى الأرض بشكل مزر ولا يكفون عن التوسل .

بل امتدت الظاهرة من الطريق العام الذى يؤدى إلى الجسر . . إلى الانتشار داخل المخيمات ، فقد كان يتم الانتشار داخل المخيمات نفسها من المتسولين الأصحاء ومن ذوى العاهات أيضًا .

ولا أعرف كيف تسمح الحكومة السعودية بترك كل هذه المجموعات الضخمة من التجار والمتسولين والجشعين على هذا النحو ؟

وأذكر أننى حين أسريت بهذا الخاطر إلى رفيق لى :

- كيف تترك الحكومة هنا كل هذا الزخم ؟

أجاب على الفور :

- وهل تستطيع الحكومة شيئًا أمام يوم الهول ؟

والإطار العام كان يشى بالمزيد لمن أراد التوسل إليه ، وأقصد به أن ما نراه كان يشى بالكثير الكثير مما كنا لا نراه . .

غير محاولة التفسير لها مكان آخر . .

عن الحج :

كنت طيلة الفترة التى قضيتها فى عرفات ، أنتهز وقت الفراغ من الدعاء والعبادة . . وما إلى ذلك من أنواع المناسك ، فأغرق فى قراءة القرآن الكريم من (مصحف) صغير الحجم هائل القيمة . مكتوبًا بخط عثمانى بديع ، ومذيلاً بمعجم ضاف ، على جانب كبير من الأهمية ، أستعيض به عن التفسير والتأمل ، وأستفيد فيه بكثير من درجات الرصد الموحية والدالة .

وقد لاحظت أننى كنت كثيرًا ما أستغرق مع هذا المعجم المهم فى التأمل ، وكتابة ما يربط بين المعانى والدلالات بشكل عصرى ، وقد أفدت كثيرًا به ، وأشهد أننى

أفدت كثيرًا بذلك ، كما كنت أصطحب كتاب مراد هوفمان (الطريق إلى مكة) ، الذى نشر قرب منتصف التسعينيات من القرن الماضى .

وقد استفدت كذلك - إلى حد كبير - بالفصول الأولى من هذا الكتاب خاصة .

ومهما يكن ، فقد كان علىَّ أن أعود فى المرة الأخيرة من جسر الجمرات ؛ لأسرع إلى العربات ، ونتجه إلى مكة بعد منتصف النهار .

كان علينا أن نسرع فى وقت بدا - على عكس المناخ فى مثل هذا الوقت من كل عام - صحوًا ممطرًا عذبًا - . .

وكان أكثر ما يلفت النظر فى طريق العودة سهولة الطريق على العكس من مشقات الذهاب ، فقد مضت العربة بنا فى جو صحو ، مشبع بنسمات رضوانية بديعة تحيى النفوس وتبعث الطمأنينة والسلام فى قلوبنا جميعًا أثناء العودة . . وكان المنظر العام يوحى بهذه السكينة الروحية ، فعديد من العربات كانت مكشوفة ، وكانت الأمطار المستمرة الندية تبعث برياح الاطمئنان فى النفوس . .

كانت السكينة أكثر ما ميز الوجوه والنفوس فى هذا اليوم . .

وتبدأ رحلة الوداع . . لنصل إلى المسجد الحرام ؛ فنقوم بطواف الإفاضة وطواف الوداع معًا ؛ وما أذكره جيدًا أننا ما كدنا نعود إلى الحرم وندلف إلى رحابه ، حتى نعود إلى جموع الحجاج ، يوالون الطواف حول الكعبة حيث كانت الأمطار مازالت مستمرة، وكأنها تقوم بعملها الدؤوب فى تطهير قلوبهم مما شابها ، قبل أن يأتوا إليها . .

وبدأنا الطواف . .

وبدأنا - بعد ذلك مباشرة - فى رحلة العودة . .

تركنا البيت الحرام ، ونحن نأسى لذهابنا عنه ، وندعو الله - عز وجل - أن يتقبل منا ، ويغفر لنا ؛ ونحن ندعو للعودة إليه مرة أخرى .

* * *

عدنا إلى الفندق فجرًا ؛ وحملنا أمتعتنا على عجل ، واتجهنا إلى المطار .

* * *

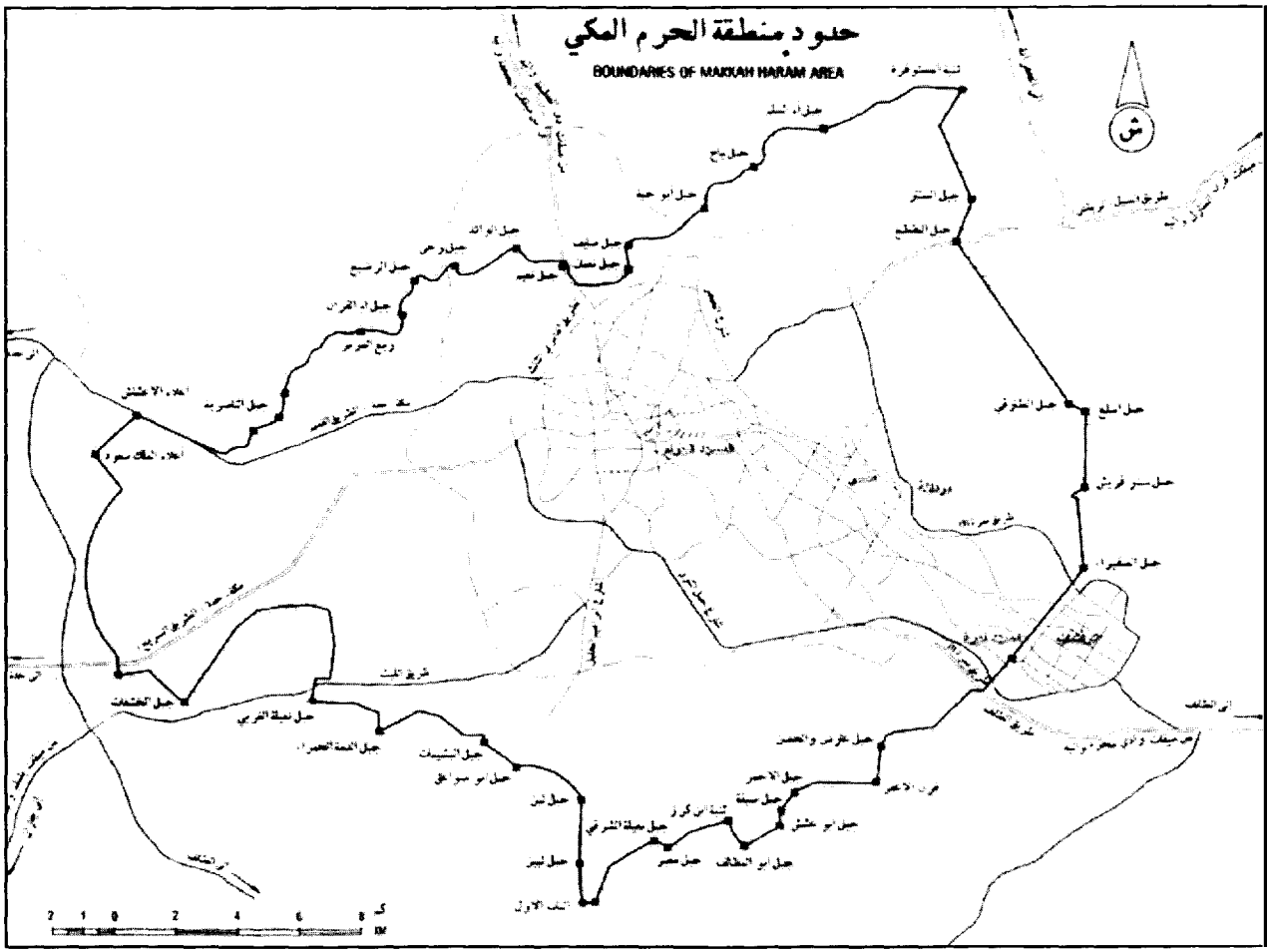
حدود منطقة الحرم المكي
BOUNDARIES OF MAKKAH HARAM AREA
ش
جبل أبو قبيس
جبل الكعبة
جبل الحجون
جبل كداء
جبل النور
جبل ثور
جبل أبو عبيدة
جبل المنصور
جبل الرصيع
جبل أبو الجدي
جبل الأعشاش
جبل الشبيكة
جبل أبو سوالم
جبل الأحمر
جبل عرفات
جبل المشعر الحرام
جبل المقطم
جبل المعلاة
جبل الكدي
جبل أبو خشم
جبل أبو النجاف
جبل عمر
جبل ثبير
جبل الأول
جبل الثاني
جبل الثالث
جبل الرابع
جبل الخامس
جبل السادس
جبل السابع
جبل الثامن
جبل التاسع
جبل العاشر
جبل الحادي عشر
جبل الثاني عشر
جبل الثالث عشر
جبل الرابع عشر
جبل الخامس عشر
جبل السادس عشر
جبل السابع عشر
جبل الثامن عشر
جبل التاسع عشر
جبل العشرين
جبل الحادي والعشرين
جبل الثاني والعشرين
جبل الثالث والعشرين
جبل الرابع والعشرين
جبل الخامس والعشرين
جبل السادس والعشرين
جبل السابع والعشرين
جبل الثامن والعشرين
جبل التاسع والعشرين
جبل الثلاثين
جبل الحادي والثلاثين
جبل الثاني والثلاثين
جبل الثالث والثلاثين
جبل الرابع والثلاثين
جبل الخامس والثلاثين
جبل السادس والثلاثين
جبل السابع والثلاثين
جبل الثامن والثلاثين
جبل التاسع والثلاثين
جبل الأربعين
جبل الحادي والأربعين
جبل الثاني والأربعين
جبل الثالث والأربعين
جبل الرابع والأربعين
جبل الخامس والأربعين
جبل السادس والأربعين
جبل السابع والأربعين
جبل الثامن والأربعين
جبل التاسع والأربعين
جبل الخمسين
جبل الحادي والخمسين
جبل الثاني والخمسين
جبل الثالث والخمسين
جبل الرابع والخمسين
جبل الخامس والخمسين
جبل السادس والخمسين
جبل السابع والخمسين
جبل الثامن والخمسين
جبل التاسع والخمسين
جبل الستين
جبل الحادي والستين
جبل الثاني والستين
جبل الثالث والستين
جبل الرابع والستين
جبل الخامس والستين
جبل السادس والستين
جبل السابع والستين
جبل الثامن والستين
جبل التاسع والستين
جبل السبعين
جبل الحادي والسبعين
جبل الثاني والسبعين
جبل الثالث والسبعين
جبل الرابع والسبعين
جبل الخامس والسبعين
جبل السادس والسبعين
جبل السابع والسبعين
جبل الثامن والسبعين
جبل التاسع والسبعين
جبل الثمانين
جبل الحادي والثمانين
جبل الثاني والثمانين
جبل الثالث والثمانين
جبل الرابع والثمانين
جبل الخامس والثمانين
جبل السادس والثمانين
جبل السابع والثمانين
جبل الثامن والثمانين
جبل التاسع والثمانين
جبل التسعين
جبل الحادي والتسعين
جبل الثاني والتسعين
جبل الثالث والتسعين
جبل الرابع والتسعين
جبل الخامس والتسعين
جبل السادس والتسعين
جبل السابع والتسعين
جبل الثامن والتسعين
جبل التاسع والتسعين
جبل المائة
جبل الحادي والمائة
جبل الثاني والمائة
جبل الثالث والمائة
جبل الرابع والمائة
جبل الخامس والمائة
جبل السادس والمائة
جبل السابع والمائة
جبل الثامن والمائة
جبل التاسع والمائة
جبل المائتين
جبل الحادي والمائتين
جبل الثاني والمائتين
جبل الثالث والمائتين
جبل الرابع والمائتين
جبل الخامس والمائتين
جبل السادس والمائتين
جبل السابع والمائتين
جبل الثامن والمائتين
جبل التاسع والمائتين
جبل الثلاثمائة
جبل الحادي والثلاثمائة
جبل الثاني والثلاثمائة
جبل الثالث والثلاثمائة
جبل الرابع والثلاثمائة
جبل الخامس والثلاثمائة
جبل السادس والثلاثمائة
جبل السابع والثلاثمائة
جبل الثامن والثلاثمائة
جبل التاسع والثلاثمائة
جبل الأربعمائة
جبل الحادي والأربعمائة
جبل الثاني والأربعمائة
جبل الثالث والأربعمائة
جبل الرابع والأربعمائة
جبل الخامس والأربعمائة
جبل السادس والأربعمائة
جبل السابع والأربعمائة
جبل الثامن والأربعمائة
جبل التاسع والأربعمائة
جبل الخمسمائة
جبل الحادي والخمسمائة
جبل الثاني والخمسمائة
جبل الثالث والخمسمائة
جبل الرابع والخمسمائة
جبل الخامس والخمسمائة
جبل السادس والخمسمائة
جبل السابع والخمسمائة
جبل الثامن والخمسمائة
جبل التاسع والخمسمائة
جبل الستمائة
جبل الحادي والستمائة
جبل الثاني والستمائة
جبل الثالث والستمائة
جبل الرابع والستمائة
جبل الخامس والستمائة
جبل السادس والستمائة
جبل السابع والستمائة
جبل الثامن والستمائة
جبل التاسع والستمائة
جبل السبعمائة
جبل الحادي والسبعمائة
جبل الثاني والسبعمائة
جبل الثالث والسبعمائة
جبل الرابع والسبعمائة
جبل الخامس والسبعمائة
جبل السادس والسبعمائة
جبل السابع والسبعمائة
جبل الثامن والسبعمائة
جبل التاسع والسبعمائة
جبل الثمانمائة
جبل الحادي والثمانمائة
جبل الثاني والثمانمائة
جبل الثالث والثمانمائة
جبل الرابع والثمانمائة
جبل الخامس والثمانمائة
جبل السادس والثمانمائة
جبل السابع والثمانمائة
جبل الثامن والثمانمائة
جبل التاسع والثمانمائة
جبل التسعمائة
جبل الحادي والتسعمائة
جبل الثاني والتسعمائة
جبل الثالث والتسعمائة
جبل الرابع والتسعمائة
جبل الخامس والتسعمائة
جبل السادس والتسعمائة
جبل السابع والتسعمائة
جبل الثامن والتسعمائة
جبل التاسع والتسعمائة
جبل الألف
جبل الحادي والألف
جبل الثاني والألف
جبل الثالث والألف
جبل الرابع والألف
جبل الخامس والألف
جبل السادس والألف
جبل السابع والألف
جبل الثامن والألف
جبل التاسع والألف
جبل الألفين
جبل الحادي والألفين
جبل الثاني والألفين
جبل الثالث والألفين
جبل الرابع والألفين
جبل الخامس والألفين
جبل السادس والألفين
جبل السابع والألفين
جبل الثامن والألفين
جبل التاسع والألفين
جبل الثلاثة آلاف
جبل الحادي والثلاثة آلاف
جبل الثاني والثلاثة آلاف
جبل الثالث والثلاثة آلاف
جبل الرابع والثلاثة آلاف
جبل الخامس والثلاثة آلاف
جبل السادس والثلاثة آلاف
جبل السابع والثلاثة آلاف
جبل الثامن والثلاثة آلاف
جبل التاسع والثلاثة آلاف
جبل الأربعة آلاف
جبل الحادي والأربعة آلاف
جبل الثاني والأربعة آلاف
جبل الثالث والأربعة آلاف
جبل الرابع والأربعة آلاف
جبل الخامس والأربعة آلاف
جبل السادس والأربعة آلاف
جبل السابع والأربعة آلاف
جبل الثامن والأربعة آلاف
جبل التاسع والأربعة آلاف
جبل الخمسة آلاف
جبل الحادي والخمسة آلاف
جبل الثاني والخمسة آلاف
جبل الثالث والخمسة آلاف
جبل الرابع والخمسة آلاف
جبل الخامس والخمسة آلاف
جبل السادس والخمسة آلاف
جبل السابع والخمسة آلاف
جبل الثامن والخمسة آلاف
جبل التاسع والخمسة آلاف
جبل الستة آلاف
جبل الحادي والستة آلاف
جبل الثاني والستة آلاف
جبل الثالث والستة آلاف
جبل الرابع والستة آلاف
جبل الخامس والستة آلاف
جبل السادس والستة آلاف
جبل السابع والستة آلاف
جبل الثامن والستة آلاف
جبل التاسع والستة آلاف
جبل السبعة آلاف
جبل الحادي والسبعة آلاف
جبل الثاني والسبعة آلاف
جبل الثالث والسبعة آلاف
جبل الرابع والسبعة آلاف
جبل الخامس والسبعة آلاف
جبل السادس والسبعة آلاف
جبل السابع والسبعة آلاف
جبل الثامن والسبعة آلاف
جبل التاسع والسبعة آلاف
جبل الثمانة آلاف
جبل الحادي والثمانة آلاف
جبل الثاني والثمانة آلاف
جبل الثالث والثمانة آلاف
جبل الرابع والثمانة آلاف
جبل الخامس والثمانة آلاف
جبل السادس والثمانة آلاف
جبل السابع والثمانة آلاف
جبل الثامن والثمانة آلاف
جبل التاسع والثمانة آلاف
جبل التسعة آلاف
جبل الحادي والتسعة آلاف
جبل الثاني والتسعة آلاف
جبل الثالث والتسعة آلاف
جبل الرابع والتسعة آلاف
جبل الخامس والتسعة آلاف
جبل السادس والتسعة آلاف
جبل السابع والتسعة آلاف
جبل الثامن والتسعة آلاف
جبل التاسع والتسعة آلاف
جبل العشرة آلاف
جبل الحادي والعشرة آلاف
جبل الثاني والعشرة آلاف
جبل الثالث والعشرة آلاف
جبل الرابع والعشرة آلاف
جبل الخامس والعشرة آلاف
جبل السادس والعشرة آلاف
جبل السابع والعشرة آلاف
جبل الثامن والعشرة آلاف
جبل التاسع والعشرة آلاف
جبل الأحد عشر ألف
جبل الحادي والأحد عشر ألف
جبل الثاني والأحد عشر ألف
جبل الثالث والأحد عشر ألف
جبل الرابع والأحد عشر ألف
جبل الخامس والأحد عشر ألف
جبل السادس والأحد عشر ألف
جبل السابع والأحد عشر ألف
جبل الثامن والأحد عشر ألف
جبل التاسع والأحد عشر ألف
جبل الاثني عشر ألف
جبل الحادي والاثني عشر ألف
جبل الثاني والاثني عشر ألف
جبل الثالث والاثني عشر ألف
جبل الرابع والاثني عشر ألف
جبل الخامس والاثني عشر ألف
جبل السادس والاثني عشر ألف
جبل السابع والاثني عشر ألف
جبل الثامن والاثني عشر ألف
جبل التاسع والاثني عشر ألف
جبل الثلاثة عشر ألف
جبل الحادي والثلاثة عشر ألف
جبل الثاني والثلاثة عشر ألف
جبل الثالث والثلاثة عشر ألف
جبل الرابع والثلاثة عشر ألف
جبل الخامس والثلاثة عشر ألف
جبل السادس والثلاثة عشر ألف
جبل السابع والثلاثة عشر ألف
جبل الثامن والثلاثة عشر ألف
جبل التاسع والثلاثة عشر ألف
جبل الأربعة عشر ألف
جبل الحادي والأربعة عشر ألف
جبل الثاني والأربعة عشر ألف
جبل الثالث والأربعة عشر ألف
جبل الرابع والأربعة عشر ألف
جبل الخامس والأربعة عشر ألف
جبل السادس والأربعة عشر ألف
جبل السابع والأربعة عشر ألف
جبل الثامن والأربعة عشر ألف
جبل التاسع والأربعة عشر ألف
جبل الخمسة عشر ألف
جبل الحادي والخمسة عشر ألف
جبل الثاني والخمسة عشر ألف
جبل الثالث والخمسة عشر ألف
جبل الرابع والخمسة عشر ألف
جبل الخامس والخمسة عشر ألف
جبل السادس والخمسة عشر ألف
جبل السابع والخمسة عشر ألف
جبل الثامن والخمسة عشر ألف
جبل التاسع والخمسة عشر ألف
جبل الستة عشر ألف
جبل الحادي والستة عشر ألف
جبل الثاني والستة عشر ألف
جبل الثالث والستة عشر ألف
جبل الرابع والستة عشر ألف
جبل الخامس والستة عشر ألف
جبل السادس والستة عشر ألف
جبل السابع والستة عشر ألف
جبل الثامن والستة عشر ألف
جبل التاسع والستة عشر ألف
جبل السبعة عشر ألف
جبل الحادي والسبعة عشر ألف
جبل الثاني والسبعة عشر ألف
جبل الثالث والسبعة عشر ألف
جبل الرابع والسبعة عشر ألف
جبل الخامس والسبعة عشر ألف
جبل السادس والسبعة عشر ألف
جبل السابع والسبعة عشر ألف
جبل الثامن والسبعة عشر ألف
جبل التاسع والسبعة عشر ألف
جبل الثمانة عشر ألف
جبل الحادي والثمانة عشر ألف
جبل الثاني والثمانة عشر ألف
جبل الثالث والثمانة عشر ألف
جبل الرابع والثمانة عشر ألف
جبل الخامس والثمانة عشر ألف
جبل السادس والثمانة عشر ألف
جبل السابع والثمانة عشر ألف
جبل الثامن والثمانة عشر ألف
جبل التاسع والثمانة عشر ألف
جبل التسعة عشر ألف
جبل الحادي والتسعة عشر ألف
جبل الثاني والتسعة عشر ألف
جبل الثالث والتسعة عشر ألف
جبل الرابع والتسعة عشر ألف
جبل الخامس والتسعة عشر ألف
جبل السادس والتسعة عشر ألف
جبل السابع والتسعة عشر ألف
جبل الثامن والتسعة عشر ألف
جبل التاسع والتسعة عشر ألف
جبل العشرين ألف
جبل الحادي والعشرين ألف
جبل الثاني والعشرين ألف
جبل الثالث والعشرين ألف
جبل الرابع والعشرين ألف
جبل الخامس والعشرين ألف
جبل السادس والعشرين ألف
جبل السابع والعشرين ألف
جبل الثامن والعشرين ألف
جبل التاسع والعشرين ألف
جبل الثلاثين ألف
جبل الحادي والثلاثين ألف
جبل الثاني والثلاثين ألف
جبل الثالث والثلاثين ألف
جبل الرابع والثلاثين ألف
جبل الخامس والثلاثين ألف
جبل السادس والثلاثين ألف
جبل السابع والثلاثين ألف
جبل الثامن والثلاثين ألف
جبل التاسع والثلاثين ألف
جبل الأربعين ألف
جبل الحادي والأربعين ألف
جبل الثاني والأربعين ألف
جبل الثالث والأربعين ألف
جبل الرابع والأربعين ألف
جبل الخامس والأربعين ألف
جبل السادس والأربعين ألف
جبل السابع والأربعين ألف
جبل الثامن والأربعين ألف
جبل التاسع والأربعين ألف
جبل الخمسين ألف
جبل الحادي والخمسين ألف
جبل الثاني والخمسين ألف
جبل الثالث والخمسين ألف
جبل الرابع والخمسين ألف
جبل الخامس والخمسين ألف
جبل السادس والخمسين ألف
جبل السابع والخمسين ألف
جبل الثامن والخمسين ألف
جبل التاسع والخمسين ألف
جبل الستين ألف
جبل الحادي والستين ألف
جبل الثاني والستين ألف
جبل الثالث والستين ألف
جبل الرابع والستين ألف
جبل الخامس والستين ألف
جبل السادس والستين ألف
جبل السابع والستين ألف
جبل الثامن والستين ألف
جبل التاسع والستين ألف
جبل السبعين ألف
جبل الحادي والسبعين ألف
جبل الثاني والسبعين ألف
جبل الثالث والسبعين ألف
جبل الرابع والسبعين ألف
جبل الخامس والسبعين ألف
جبل السادس والسبعين ألف
جبل السابع والسبعين ألف
جبل الثامن والسبعين ألف
جبل التاسع والسبعين ألف
جبل الثمانين ألف
جبل الحادي والثمانين ألف
جبل الثاني والثمانين ألف
جبل الثالث والثمانين ألف
جبل الرابع والثمانين ألف
جبل الخامس والثمانين ألف
جبل السادس والثمانين ألف
جبل السابع والثمانين ألف
جبل الثامن والثمانين ألف
جبل التاسع والثمانين ألف
جبل التسعين ألف
جبل الحادي والتسعين ألف
جبل الثاني والتسعين ألف
جبل الثالث والتسعين ألف
جبل الرابع والتسعين ألف
جبل الخامس والتسعين ألف
جبل السادس والتسعين ألف
جبل السابع والتسعين ألف
جبل الثامن والتسعين ألف
جبل التاسع والتسعين ألف
جبل المائة ألف
جبل الحادي والمائة ألف
جبل الثاني والمائة ألف
جبل الثالث والمائة ألف
جبل الرابع والمائة ألف
جبل الخامس والمائة ألف
جبل السادس والمائة ألف
جبل السابع والمائة ألف
جبل الثامن والمائة ألف
جبل التاسع والمائة ألف
جبل المائتين ألف
جبل الحادي والمائتين ألف
جبل الثاني والمائتين ألف
جبل الثالث والمائتين ألف
جبل الرابع والمائتين ألف
جبل الخامس والمائتين ألف
جبل السادس والمائتين ألف
جبل السابع والمائتين ألف
جبل الثامن والمائتين ألف
جبل التاسع والمائتين ألف
جبل الثلاثمائة ألف
جبل الحادي والثلاثمائة ألف
جبل الثاني والثلاثمائة ألف
جبل الثالث والثلاثمائة ألف
جبل الرابع والثلاثمائة ألف
جبل الخامس والثلاثمائة ألف
جبل السادس والثلاثمائة ألف
جبل السابع والثلاثمائة ألف
جبل الثامن والثلاثمائة ألف
جبل التاسع والثلاثمائة ألف
جبل الأربعمائة ألف
جبل الحادي والأربعمائة ألف
جبل الثاني والأربعمائة ألف
جبل الثالث والأربعمائة ألف
جبل الرابع والأربعمائة ألف
جبل الخامس والأربعمائة ألف
جبل السادس والأربعمائة ألف
جبل السابع والأربعمائة ألف
جبل الثامن والأربعمائة ألف
جبل التاسع والأربعمائة ألف
جبل الخمسمائة ألف
جبل الحادي والخمسمائة ألف
جبل الثاني والخمسمائة ألف
جبل الثالث والخمسمائة ألف
جبل الرابع والخمسمائة ألف
جبل الخامس والخمسمائة ألف
جبل السادس والخمسمائة ألف
جبل السابع والخمسمائة ألف
جبل الثامن والخمسمائة ألف
جبل التاسع والخمسمائة ألف
جبل الستمائة ألف
جبل الحادي والستمائة ألف
جبل الثاني والستمائة ألف
جبل الثالث والستمائة ألف
جبل الرابع والستمائة ألف
جبل الخامس والستمائة ألف
جبل السادس والستمائة ألف
جبل السابع والستمائة ألف
جبل الثامن والستمائة ألف
جبل التاسع والستمائة ألف
جبل السبعمائة ألف
جبل الحادي والسبعمائة ألف
جبل الثاني والسبعمائة ألف
جبل الثالث والسبعمائة ألف
جبل الرابع والسبعمائة ألف
جبل الخامس والسبعمائة ألف
جبل السادس والسبعمائة ألف
جبل السابع والسبعمائة ألف
جبل الثامن والسبعمائة ألف
جبل التاسع والسبعمائة ألف
جبل الثمانمائة ألف
جبل الحادي والثمانمائة ألف
جبل الثاني والثمانمائة ألف
جبل الثالث والثمانمائة ألف
جبل الرابع والثمانمائة ألف
جبل الخامس والثمانمائة ألف
جبل السادس والثمانمائة ألف
جبل السابع والثمانمائة ألف
جبل الثامن والثمانمائة ألف
جبل التاسع والثمانمائة ألف
جبل التسعمائة ألف
جبل الحادي والتسعمائة ألف
جبل الثاني والتسعمائة ألف
جبل الثالث والتسعمائة ألف
جبل الرابع والتسعمائة ألف
جبل الخامس والتسعمائة ألف
جبل السادس والتسعمائة ألف
جبل السابع والتسعمائة ألف
جبل الثامن والتسعمائة ألف
جبل التاسع والتسعمائة ألف
جبل المليون
جبل الحادي والمليون
جبل الثاني والمليون
جبل الثالث والمليون
جبل الرابع والمليون
جبل الخامس والمليون
جبل السادس والمليون
جبل السابع والمليون
جبل الثامن والمليون
جبل التاسع والمليون
جبل العشرة ملايين
جبل الحادي والعشرة ملايين
جبل الثاني والعشرة ملايين
جبل الثالث والعشرة ملايين
جبل الرابع والعشرة ملايين
جبل الخامس والعشرة ملايين
جبل السادس والعشرة ملايين
جبل السابع والعشرة ملايين
جبل الثامن والعشرة ملايين
جبل التاسع والعشرة ملايين
جبل المائة مليون
جبل الحادي والمائة مليون
جبل الثاني والمائة مليون
جبل الثالث والمائة مليون
جبل الرابع والمائة مليون
جبل الخامس والمائة مليون
جبل السادس والمائة مليون
جبل السابع والمائة مليون
جبل الثامن والمائة مليون
جبل التاسع والمائة مليون
جبل الألف مليون
جبل الحادي والألف مليون
جبل الثاني والألف مليون
جبل الثالث والألف مليون
جبل الرابع والألف مليون
جبل الخامس والألف مليون
جبل السادس والألف مليون
جبل السابع والألف مليون
جبل الثامن والألف مليون
جبل التاسع والألف مليون
جبل الألفين مليون
جبل الحادي والألفين مليون
جبل الثاني والألفين مليون
جبل الثالث والألفين مليون
جبل الرابع والألفين مليون
جبل الخامس والألفين مليون
جبل السادس والألفين مليون
جبل السابع والألفين مليون
جبل الثامن والألفين مليون
جبل التاسع والألفين مليون
جبل الثلاثة آلاف مليون
جبل الحادي والثلاثة آلاف مليون
جبل الثاني والثلاثة آلاف مليون
جبل الثالث والثلاثة آلاف مليون
جبل الرابع والثلاثة آلاف مليون
جبل الخامس والثلاثة آلاف مليون
جبل السادس والثلاثة آلاف مليون
جبل السابع والثلاثة آلاف مليون
جبل الثامن والثلاثة آلاف مليون
جبل التاسع والثلاثة آلاف مليون
جبل الأربعة آلاف مليون
جبل الحادي والأربعة آلاف مليون
جبل الثاني والأربعة آلاف مليون
جبل الثالث والأربعة آلاف مليون
جبل الرابع والأربعة آلاف مليون
جبل الخامس والأربعة آلاف مليون
جبل السادس والأربعة آلاف مليون
جبل السابع والأربعة آلاف مليون
جبل الثامن والأربعة آلاف مليون
جبل التاسع والأربعة آلاف مليون
جبل الخمسة آلاف مليون
جبل الحادي والخمسة آلاف مليون
جبل الثاني والخمسة آلاف مليون
جبل الثالث والخمسة آلاف مليون
جبل الرابع والخمسة آلاف مليون
جبل الخامس والخمسة آلاف مليون
جبل السادس والخمسة آلاف مليون
جبل السابع والخمسة آلاف مليون
جبل الثامن والخمسة آلاف مليون
جبل التاسع والخمسة آلاف مليون
جبل الستة آلاف مليون
جبل الحادي والستة آلاف مليون
جبل الثاني والستة آلاف مليون
جبل الثالث والستة آلاف مليون
جبل الرابع والستة آلاف مليون
جبل الخامس والستة آلاف مليون
جبل السادس والستة آلاف مليون
جبل السابع والستة آلاف مليون
جبل الثامن والستة آلاف مليون
جبل التاسع والستة آلاف مليون
جبل السبعة آلاف مليون
جبل الحادي والسبعة آلاف مليون
جبل الثاني والسبعة آلاف مليون
جبل الثالث والسبعة آلاف مليون
جبل الرابع والسبعة آلاف مليون
جبل الخامس والسبعة آلاف مليون
جبل السادس والسبعة آلاف مليون
جبل السابع والسبعة آلاف مليون
جبل الثامن والسبعة آلاف مليون
جبل التاسع والسبعة آلاف مليون
جبل الثمانة آلاف مليون
جبل الحادي والثمانة آلاف مليون
جبل الثاني والثمانة آلاف مليون
جبل الثالث والثمانة آلاف مليون
جبل الرابع والثمانة آلاف مليون
جبل الخامس والثمانة آلاف مليون
جبل السادس والثمانة آلاف مليون
جبل السابع والثمانة آلاف مليون
جبل الثامن والثمانة آلاف مليون
جبل التاسع والثمانة آلاف مليون
جبل التسعة آلاف مليون
جبل الحادي والتسعة آلاف مليون
جبل الثاني والتسعة آلاف مليون
جبل الثالث والتسعة آلاف مليون
جبل الرابع والتسعة آلاف مليون
جبل الخامس والتسعة آلاف مليون
جبل السادس والتسعة آلاف مليون
جبل السابع والتسعة آلاف مليون
جبل الثامن والتسعة آلاف مليون
جبل التاسع والتسعة آلاف مليون
جبل العشرة آلاف مليون
جبل الحادي والعشرة آلاف مليون
جبل الثاني والعشرة آلاف مليون
جبل الثالث والعشرة آلاف مليون
جبل الرابع والعشرة آلاف مليون
جبل الخامس والعشرة آلاف مليون
جبل السادس والعشرة آلاف مليون
جبل السابع والعشرة آلاف مليون
جبل الثامن والعشرة آلاف مليون
جبل التاسع والعشرة آلاف مليون
جبل الأحد عشر ألف مليون
جبل الحادي والأحد عشر ألف مليون
جبل الثاني والأحد عشر ألف مليون
جبل الثالث والأحد عشر ألف مليون
جبل الرابع والأحد عشر ألف مليون
جبل الخامس والأحد عشر ألف مليون
جبل السادس والأحد عشر ألف مليون
جبل السابع والأحد عشر ألف مليون
جبل الثامن والأحد عشر ألف مليون
جبل التاسع والأحد عشر ألف مليون
جبل الاثني عشر ألف مليون
جبل الحادي والاثني عشر ألف مليون
جبل الثاني والاثني عشر ألف مليون
جبل الثالث والاثني عشر ألف مليون
جبل الرابع والاثني عشر ألف مليون
جبل الخامس والاثني عشر ألف مليون
جبل السادس والاثني عشر ألف مليون
جبل السابع والاثني عشر ألف مليون
جبل الثامن والاثني عشر ألف مليون
جبل التاسع والاثني عشر ألف مليون
جبل الثلاثة عشر ألف مليون
جبل الحادي والثلاثة عشر ألف مليون
جبل الثاني والثلاثة عشر ألف مليون
جبل الثالث والثلاثة عشر ألف مليون
جبل الرابع والثلاثة عشر ألف مليون
جبل الخامس والثلاثة عشر ألف مليون
جبل السادس والثلاثة عشر ألف مليون
جبل السابع والثلاثة عشر ألف مليون
جبل الثامن والثلاثة عشر ألف مليون
جبل التاسع والثلاثة عشر ألف مليون
جبل الأربعة عشر ألف مليون
جبل الحادي والأربعة عشر ألف مليون
جبل الثاني والأربعة عشر ألف مليون
جبل الثالث والأربعة عشر ألف مليون
جبل الرابع والأربعة عشر ألف مليون
جبل الخامس والأربعة عشر ألف مليون
جبل السادس والأربعة عشر ألف مليون
جبل السابع والأربعة عشر ألف مليون
جبل الثامن والأربعة عشر ألف مليون
جبل التاسع والأربعة عشر ألف مليون
جبل الخمسة عشر ألف مليون
جبل الحادي والخمسة عشر ألف مليون
جبل الثاني والخمسة عشر ألف مليون
جبل الثالث والخمسة عشر ألف مليون
جبل الرابع والخمسة عشر ألف مليون
جبل الخامس والخمسة عشر ألف مليون
جبل السادس والخمسة عشر ألف مليون
جبل السابع والخمسة عشر ألف مليون
جبل الثامن والخمسة عشر ألف مليون
جبل التاسع والخمسة عشر ألف مليون
جبل الستة عشر ألف مليون
جبل الحادي والستة عشر ألف مليون
جبل الثاني والستة عشر ألف مليون
جبل الثالث والستة عشر ألف مليون
جبل الرابع والستة عشر ألف مليون
جبل الخامس والستة عشر ألف مليون
جبل السادس والستة عشر ألف مليون
جبل السابع والستة عشر ألف مليون
جبل الثامن والستة عشر ألف مليون
جبل التاسع والستة عشر ألف مليون
جبل السبعة عشر ألف مليون
جبل الحادي والسبعة عشر ألف مليون
جبل الثاني والسبعة عشر ألف مليون
جبل الثالث والسبعة عشر ألف مليون
جبل الرابع والسبعة عشر ألف مليون
جبل الخامس والسبعة عشر ألف مليون
جبل السادس والسبعة عشر ألف مليون
جبل السابع والسبعة عشر ألف مليون
جبل الثامن والسبعة عشر ألف مليون
جبل التاسع والسبعة عشر ألف مليون
جبل الثمانة عشر ألف مليون
جبل الحادي والثمانة عشر ألف مليون
جبل الثاني والثمانة عشر ألف مليون
جبل الثالث والثمانة عشر ألف مليون
جبل الرابع والثمانة عشر ألف مليون
جبل الخامس والثمانة عشر ألف مليون
جبل السادس والثمانة عشر ألف مليون
جبل السابع والثمانة عشر ألف مليون
جبل الثامن والثمانة عشر ألف مليون
جبل التاسع والثمانة عشر ألف مليون
جبل التسعة عشر ألف مليون
جبل الحادي والتسعة عشر ألف مليون
جبل الثاني والتسعة عشر ألف مليون
جبل الثالث والتسعة عشر ألف مليون
جبل الرابع والتسعة عشر ألف مليون
جبل الخامس والتسعة عشر ألف مليون
جبل السادس والتسعة عشر ألف مليون
جبل السابع والتسعة عشر ألف مليون
جبل الثامن والتسعة عشر ألف مليون
جبل التاسع والتسعة عشر ألف مليون
جبل العشرين ألف مليون
جبل الحادي والعشرين ألف مليون
جبل الثاني والعشرين ألف مليون
جبل الثالث والعشرين ألف مليون
جبل الرابع والعشرين ألف مليون
جبل الخامس والعشرين ألف مليون
جبل السادس والعشرين ألف مليون
جبل السابع والعشرين ألف مليون
جبل الثامن والعشرين ألف مليون
جبل التاسع والعشرين ألف مليون
جبل الثلاثين ألف مليون
جبل الحادي والثلاثين ألف مليون
جبل الثاني والثلاثين ألف مليون
جبل الثالث والثلاثين ألف مليون
جبل الرابع والثلاثين ألف مليون
جبل الخامس والثلاثين ألف مليون
جبل السادس والثلاثين ألف مليون
جبل السابع والثلاثين ألف مليون
جبل الثامن والثلاثين ألف مليون
جبل التاسع والثلاثين ألف مليون
جبل الأربعين ألف مليون
جبل الحادي والأربعين ألف مليون
جبل الثاني والأربعين ألف مليون
جبل الثالث والأربعين ألف مليون
جبل الرابع والأربعين ألف مليون
جبل الخامس والأربعين ألف مليون
جبل السادس والأربعين ألف مليون
جبل السابع والأربعين ألف مليون
جبل الثامن والأربعين ألف مليون
جبل التاسع والأربعين ألف مليون
جبل الخمسين ألف مليون
جبل الحادي والخمسين ألف مليون
جبل الثاني والخمسين ألف مليون
جبل الثالث والخمسين ألف مليون
جبل الرابع والخمسين ألف مليون
جبل الخامس والخمسين ألف مليون
جبل السادس والخمسين ألف مليون
جبل السابع والخمسين ألف مليون
جبل الثامن والخمسين ألف مليون
جبل التاسع والخمسين ألف مليون
جبل الستين ألف مليون
جبل الحادي والستين ألف مليون
جبل الثاني والستين ألف مليون
جبل الثالث والستين ألف مليون
جبل الرابع والستين ألف مليون
جبل الخامس والستين ألف مليون
جبل السادس والستين ألف مليون
جبل السابع والستين ألف مليون
جبل الثامن والستين ألف مليون
جبل التاسع والستين ألف مليون
جبل السبعين ألف مليون
جبل الحادي والسبعين ألف مليون
جبل الثاني والسبعين ألف مليون
جبل الثالث والسبعين ألف مليون
جبل الرابع والسبعين ألف مليون
جبل الخامس والسبعين ألف مليون
جبل السادس والسبعين ألف مليون
جبل السابع والسبعين ألف مليون
جبل الثامن والسبعين ألف مليون
جبل التاسع والسبعين ألف مليون
جبل الثمانين ألف مليون
جبل الحادي والثمانين ألف مليون
جبل الثاني والثمانين ألف مليون
جبل الثالث والثمانين ألف مليون
جبل الرابع والثمانين ألف مليون
جبل الخامس والثمانين ألف مليون
جبل السادس والثمانين ألف مليون
جبل السابع والثمانين ألف مليون
جبل الثامن والثمانين ألف مليون
جبل التاسع والثمانين ألف مليون
جبل التسعين ألف مليون
جبل الحادي والتسعين ألف مليون
جبل الثاني والتسعين ألف مليون
جبل الثالث والتسعين ألف مليون
جبل الرابع والتسعين ألف مليون
جبل الخامس والتسعين ألف مليون
جبل السادس والتسعين ألف مليون
جبل السابع والتسعين ألف مليون
جبل الثامن والتسعين ألف مليون
جبل التاسع والتسعين ألف مليون
جبل المائة ألف مليون
جبل الحادي والمائة ألف مليون
جبل الثاني والمائة ألف مليون
جبل الثالث والمائة ألف مليون
جبل الرابع والمائة ألف مليون
جبل الخامس والمائة ألف مليون
جبل السادس والمائة ألف مليون
جبل السابع والمائة ألف مليون
جبل الثامن والمائة ألف مليون
جبل التاسع والمائة ألف مليون
جبل المائتين ألف مليون
جبل الحادي والمائتين ألف مليون
جبل الثاني والمائتين ألف مليون
جبل الثالث والمائتين ألف مليون
جبل الرابع والمائتين ألف مليون
جبل الخامس والمائتين ألف مليون
جبل السادس والمائتين ألف مليون
جبل السابع والمائتين ألف مليون
جبل الثامن والمائتين ألف مليون
جبل التاسع والمائتين ألف مليون
جبل الثلاثمائة ألف مليون
جبل الحادي والثلاثمائة ألف مليون
جبل الثاني والثلاثمائة ألف مليون
جبل الثالث والثلاثمائة ألف مليون
جبل الرابع والثلاثمائة ألف مليون
جبل الخامس والثلاثمائة ألف مليون
جبل السادس والثلاثمائة ألف مليون
جبل السابع والثلاثمائة ألف مليون
جبل الثامن والثلاثمائة ألف مليون
جبل التاسع والثلاثمائة ألف مليون
جبل الأربعمائة ألف مليون
جبل الحادي والأربعمائة ألف مليون
جبل الثاني والأربعمائة ألف مليون
جبل الثالث والأربعمائة ألف مليون
جبل الرابع والأربعمائة ألف مليون
جبل الخامس والأربعمائة ألف مليون
جبل السادس والأربعمائة ألف مليون
جبل السابع والأربعمائة ألف مليون
جبل الثامن والأربعمائة ألف مليون
جبل التاسع والأربعمائة ألف مليون
جبل الخمسمائة ألف مليون
جبل الحادي والخمسمائة ألف مليون
جبل الثاني والخمسمائة ألف مليون
جبل الثالث والخمسمائة ألف مليون
جبل الرابع والخمسمائة ألف مليون
جبل الخامس والخمسمائة ألف مليون
جبل السادس والخمسمائة ألف مليون
جبل السابع والخمسمائة ألف مليون
جبل الثامن والخمسمائة ألف مليون
جبل التاسع والخمسمائة ألف مليون
جبل الستمائة ألف مليون
جبل الحادي والستمائة ألف مليون
جبل الثاني والستمائة ألف مليون
جبل الثالث والستمائة ألف مليون
جبل الرابع والستمائة ألف مليون
جبل الخامس والستمائة ألف مليون
جبل السادس والستمائة ألف مليون
جبل السابع والستمائة ألف مليون
جبل الثامن والستمائة ألف مليون
جبل التاسع والستمائة ألف مليون
جبل السبعمائة ألف مليون
جبل الحادي والسبعمائة ألف مليون
جبل الثاني والسبعمائة ألف مليون
جبل الثالث والسبعمائة ألف مليون
جبل الرابع والسبعمائة ألف مليون
جبل الخامس والسبعمائة ألف مليون
جبل السادس والسبعمائة ألف مليون
جبل السابع والسبعمائة ألف مليون
جبل الثامن والسبعمائة ألف مليون
جبل التاسع والسبعمائة ألف مليون
جبل الثمانمائة ألف مليون
جبل الحادي والثمانمائة ألف مليون
جبل الثاني والثمانمائة ألف مليون
جبل الثالث والثمانمائة ألف مليون
جبل الرابع والثمانمائة ألف مليون
جبل الخامس والثمانمائة ألف مليون
جبل السادس والثمانمائة ألف مليون
جبل السابع والثمانمائة ألف مليون
جبل الثامن والثمانمائة ألف مليون
جبل التاسع والثمانمائة ألف مليون
جبل التسعمائة ألف مليون
جبل الحادي والتسعمائة ألف مليون
جبل الثاني والتسعمائة ألف مليون
جبل الثالث والتسعمائة ألف مليون
جبل الرابع والتسعمائة ألف مليون
جبل الخامس والتسعمائة ألف مليون
جبل السادس والتسعمائة ألف مليون
جبل السابع والتسعمائة ألف مليون
جبل الثامن والتسعمائة ألف مليون
جبل التاسع والتسعمائة ألف مليون
جبل المليون
جبل الحادي والمليون
جبل الثاني والمليون
جبل الثالث والمليون
جبل الر

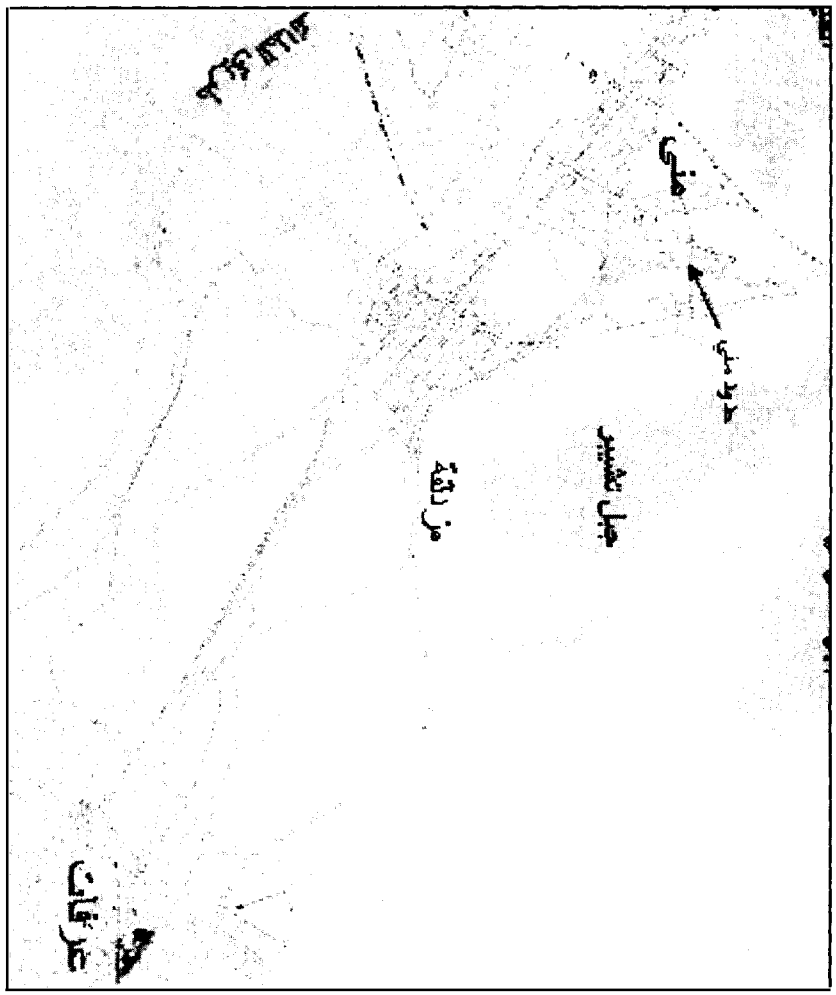
منى
جبل ثبير
مزدلفة
عرفات

عمل	غير حنفية	حنفي	الشافعي	ابن
السعي	أركان فرض	فرض ركن	فرض ركن	فرض ركن
السعي	سنة مؤكدة	سنة مؤكدة	فرض ركن	فرض ركن
الإحرام بالحج	شرط	ركن	ركن	ركن
الإحرام بالعمرة	شرط	ركن	ركن	ركن
الأركان الإحرام بالعمرة	سنة - وقيل واجب	سنة - وقيل واجب	سنة	سنة
الإحرام من الميقات	واجب	واجب	واجب	واجب
التلبية للإحرام	سنة	مكروه	سنة	سنة
غسل الإحرام	سنة	سنة	سنة	سنة
التلبية	سنة أو واجب	واجب	سنة	سنة
طواف القدوم	سنة	واجب	سنة	سنة
نية الطواف	شرط	واجب أو شرط	شرط	شرط
بدء الطواف من الحجر الأسود	واجب	واجب	شرط	شرط
التقيد في الطواف بالكعبة	واجب	واجب	سنة	شرط
الطهارة من الحدثين في الطواف	واجب	شرط	شرط	شرط
الطواف من وراء الحطيم	واجب	شرط	شرط	شرط
الطواف ٧ أشواط	واجب	شرط	شرط	شرط
تتابع أشواط الطواف	سنة	واجب أو شرط	سنة	شرط
ركنا الطواف	سنة	واجب	سنة أو واجب	سنة
السعي بين الصفا والمروة	واجب	ركن	ركن	ركن
الطواف للعمرة	ركن	ركن	ركن	ركن
وقوع السعي بعد الطواف	شرط	ركن	واجب أو شرط	ركن
نية السعي	واجب	شرط	شرط	شرط
بدء السعي بالصفا وختامه بالمروة	واجب	شرط	شرط	شرط
التقيد في السعي بالمشي	واجب	واجب	سنة	شرط
السعي ٧ أشواط	واجب	شرط	شرط	شرط
تتابع أشواط السعي	واجب	شرط أو واجب	سنة	شرط
الحلق أو التقصير للعمرة	واجب	واجب	واجب	واجب
الحلق بمنى لمن لم يعرفها	سنة	سنة	سنة	سنة
وقت الوقوف بعرفة	من الظهر يوم عرفة إلى فجر يوم عيد الأضحى بإجماع الأئمة، وهو الركن الأعظم في الحج			
بعد الوقوف إلى ما بعد الغروب	واجب	ركن	واجب أو سنة	واجب
جمع الصلاة مع الوقوف بالمزدلفة	واجب	سنة	سنة	سنة
المبيت بالمزدلفة	واجب، ولو لأمتعة	واجب وسنة في الضرورة والنساء	واجب ولو لأمتعة إلى منتصف الليل	واجب
رمي الجمرة الكبرى (العقبة)	واجب	واجب	واجب	واجب
الحلق أو التقصير	واجب	واجب وركن	ركن	واجب
الترتيب في الرمي والحلق والذبح	واجب	سنة	سنة	سنة
الحلق أو التقصير للإحصار	واجب	سنة	سنة	سنة
طواف الإفاضة	ركن	ركن	ركن	ركن
طواف الإفاضة في يوم الأضحى	واجب	واجب في أيام التشريق	سنة	سنة أو واجب الأضحى
الوضوء للطواف والسعي	سنة	واجب	سنة	سنة
الإحصار عن البيت بمرض أو غيره	واجب	واجب	واجب	واجب
رمي الجمرات الثلاث: الأولى والوسطى والعقبة في يوم الأضحى ويوم الثاني من التشريق وكذا الثالث				
المبيت بمنى ليالي أيام التشريق	سنة	واجب	واجب	واجب
رمي الجمرة الأولى أو الثانية	سنة	واجب	سنة	سنة
طواف الوداع	واجب	سنة/واجب	سنة	واجب